وِل دورانت

قصة الحضارة الفارسية

نقلا عن كتاب "قصة الحضارة"

ترجمة

د.إبراهيم أمين الشـواربي

الكتاب: قصة الحضارة الفارسية

الكاتب: ول دورانت

ترجمة: د.إبراهيم أمين الشواربي

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

دورانت ، ول
قصة الحضارة الفارسية / ول دورانت, ترجمة: د.إبراهيم أمين الشواربي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٣٥ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٦ – ٥٧٤ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٥٢٨٥ / ٢٠٢٢

قصة الحضارة الفارسية



مقدمة المترجم

هذه فصول منقولة من كتاب "قصة الحضارة" الذي أصدره الأستاذ المؤرخ "ول دورانت" بمدينة نيويورك في سنة ١٩٤٢ وتشتمل هذه الفصول على "قصة الحضارة الفارسية" كما رواها الأستاذ "دورانت" في الباب الثالث عشر من كتابه الكبير الذي جعله موسوعة تاريخية مفصلة، تضمنت الحديث المستفيض عن "تراث المشرق" وما اشتمل عليه من حضارات السومريين والمصريين والبابليين والآشوريين والحيثيين واليهود والفرس والهنود والصينيين واليابانيين.

وقد استطاع الأستاذ "دورانت" بمهارته التي اتصف بها، أن يعرض علينا قصص هذه الحضارات في أسلوب رصين شيق، يمتاز بطلاوة الحكاية وطرافة الرواية والتعمق في اختيار الموضوعات والتدقيق في ذكر الأخبار والتفصيلات، ومكنته براعته في دراسة التاريخ من أن يضمن أبحاثه جميعا كثيرا من التحقيقات الفنية الحديثة دون أن يشعرنا أثناء عرضها بشيء من الملل والسأم اللذين يصحبان عادة مثل هذه الأبحاث العلمية العويصة؛ فالتاريخ كما فهمه "دورانت" وأضرابه، قصة ممتعة، يستطيع المؤرخ النابه

أن يرويها لسامعيه في يسر وهوادة، فيجعل منها مجموعة من الأحاديث الطريفة الشيقة التي ترتبط أجزاؤها ارتباطا وثيقا يدعو إلى الإمتاع والأقناع وإلى الإعجاب بلباقة المحدث وبراعة الحديث.

وقد جرى "دورانت" على هذا النهج في سائر كتبه وأبحاثه، فوجدناه مؤرخا رشيق العبارة ناضج التفكير في كتابه "قصة الفلسفة" الذي أصدره في لندن في سنة ١٩٢٦؛ ووجدناه محدثا من الطراز الأول في "قصة الحضارة" التي أصدرها في سنة ١٩٤٢؛ كما وجدناه مؤرخا غزير المادة وافر الموضوع في كتابه الأخير "قصة الحضارة الرومانية" الذي أصدره في نيويورك سنة ١٩٤٤ وليست هذه هي المرة الأولى التي نقدم فيها الأستاذ "دورانت" للقارئ العربي، فقد سبقني إلى هذا الفضل أستاذي الجليل صاحب العزة أحمد أمين بك في مقدمة كتابه "قصة الفلسفة الحديثة" فذكر مقدار ما أصابه هذا الأستاذ من "توفيق في عرض مسائل الفلسفة وتحليل رجالها في أسلوب رشيق وبيان واضح" فإذا أقدمت اليوم على نشر هذه الفصول المتعلقة ب "قصة الحضارة الفارسية" كما رواها الأستاذ دورانت، فأنا لا أفعل أكثر من أن أقدم للقارئ العربي مثالا من كتابات هذا المؤرخ الاجتماعي الكبير، لعل في ذلك ما يشحذ الهم على ترجمة كتبه كلها أو

بعضها، وعلى الخصوص كتاب "قصة الحضارة" لارتباطه بحضارات مشرقنا الخالد العتيد.

و"قصة الحضارة الفارسية" بعد ذلك كله قصة شائقة، يستطيع القارئ العادي أن يجد فيها المتعة واللذة اللتين تشتمل عليهما أجود الأبحاث التاريخية سبكها وأبرعها أسلوبا، كما يستطيع القارئ المتخصص في الدراسات الشرقية أن يجعل منها نواة لأبحاث علمية كثيرة تتصل بحضارة "فارس" في أقدم عصورها ولأبعد وأزمانها.

القاهرة في ٢٧ رجب سنة ١٣٦٦

١٦ يونيه سنة ١٩٤٧

الفصل الأول

الميديون

ارتفاع أمرهم وزوال دولتهم، أصولهم وحكامهم، معاهدة سردين الدموية، دور الانحطاط

من هم الميديون الذين لعبوا دورا هاما في تحطيم الآشوريين...؟

أما أصلهم فلا سبيل لنا إلى إدراكه لأن التاريخ كتاب كبير لا يسع القارئ إلا أن يبدأه من منتصف صفحاته، وأول ما ورد لنا من أمرهم محصور في لوحة من اللوحات سجلوا فيها حملة "سلما نصر الثالث" على بلاد تسمى "بارسوا" في جبال كردستان سنة ٨٣٧ ق. م وكانت هذه البلاد فيما يظهر مكونة من سبع وعشرين ولاية، يحكمها سبعة وعشرون حاكما من الرؤساء والحكام، وكانت قليلة السكان يقطنها شعب من الناس يسمى "أماديا" أو "ماديا" أو "الميديين" وهم شعب من الشعوب الهندية الأوروبية، قد أقبلوا من شواطئ بحر قزوين إلى الأقاليم الأخرى من أسيا في الفترة التي تقدمت السنوات الألف السابقة على ظهور المسيح، والزند افستا "وهو عبارة عن مجموعة النصوص المقدسة لدى الفرس" يرتفع بذكر هذه البلاد القديمة إلى درجة المثالية حتى ليصورها بصورة جنة الخلد الموعودة؛ ولكن الماضي دائما جميل، وحاله في ذلك حال الشباب بذكرياته، فهي رائعة حقا وجميلة حقا.. بشرط ألا نضبط في وقت من الأوقات إلى أن نعيش ثانية في هذه الفترات الماضية العابرة.

ويبدو أن "الميديين" أخذوا يجوبون أولا الإقليم المحيط بـ

"بخاري" و"سمرقند" ثم أخذوا يهاجرون جنوبا إلى أن وصلوا إلى "فارس" فاتخذوها موطنا جديدا لهم، ووجدوا في حبالها النحاس والحديد والرصاص والذهب والفضة والرخام وسائر الأحجار الكريمة، وكانوا بالإضافة إلى ذلك قوما يمتازون بالبساطة والقوة والنشاط، فاشتغلوا بتنمية الزراعة في الأودية وسفوح الجبال والتلال المحيطة بهم.

وقد أسس "ديوسيس" أول ملوكهم عاصمته الأولى في "إكباتانا"[١] وهي مدينة تتلاقى عندها عدة من الطرق والسبل، تقع في واد خصيب رائع المنظر ترويه مياه الثلوج الذائبة التي تنحدر إليه من المرتفعات وقنن الجبال؛ ثم زين "ديوسيس" مدينته هذه بقصر ملكي رائع يشرف عليها من جميع نواحيها تبلغ مساحته ثلثي ميل مربع من الأرض، وقد ورد في مقطوعة غير مقطوع بصحتها في تاريخ "هرودوت" أن "ديوسيس" اكتسب شهرة عريضة في العدل والإنصاف فتمكن بذلك من الاستيلاء على أزمة الأمور ولكنه لم يلبث طويلا حتى تحول بعد ذلك إلى حاكم مطلق شديد الاستبداد والعتو، فكان مما أصدره من أوامر ألا يسمح لأحد من عامة الناس بالدخول إلى حضرته والمثول بين

(١) هي مدينة "همدان" الحالية.

يديه، وعلى من يريد أن يعرض عليه أمرا من المور أن يلتمس ذلك بواسطة الرسل والمندوبين، وجعل من أشد أنواع القحة أن يضحك شخص أمام الملك أو يبصق أثناء وجوده، وأخذ يحوط نفسه بمختلف المراسم والتقاليد لكي يبدو لمن لم يره رأى العين مختلفا في طبيعته عنهم وعن سائر الناس أجمعين.

وقد قوى شأن "الميديين" بفضل حياتهم الطبيعية والاقتصادية واشتدت شوكتهم بفضل ما أملته عليهم لوازم الحرب وما يتصل بها من عادات وظروف.

فاستطاعوا تحت قيادة "ديوسيس" أن يصبحوا مصدر خطر على "أشور".

وقد تمكنت هذه الدولة الأخيرة من أن تغزوا "ميديا" جملة مرات وظنت أنها حطمتها منظما لا قومة لها من بعده، ولكنها لم تلبث أن وجدتها لا تمل القتال دفاعا عن حريتها واستقلالها، حتى تمكن في النهاية "سياكزارس" وهو أكبر ملوك "ميديا" إطلاقا، من أن يحسم الأمور بينه وبين الآشوريين بتحطيم مدينة "نينوي" وأوحى له هذا الظفر المؤيد بان يقود جيشه فيجتاح الأراضي الواقعة في غرب أسيا ويصل إلى أبواب "سرديس" ولكن منعه من الاستيلاء عليها كسوف أصاب الشمس عند وصوله إليها، جعل

جماعة من القواد المعارضين يحسون بالرهبة والخوف أمام هذا النذير الذي أنذرتهم به السموات، فرضوا طائعين بإمضاء معاهدة الصلح، وأبرموها على رشف الجرعات التي تناولها كل منهم من دم أخيه، وبعد ذلك بسنة واحدة توفى "سياركزارس" بعد ما تمكن أثناء حكمه من أن يرقى بمملكته من ولاية تابعة ذليلة إلى إمبراطورية واسعة عريضة تشمل على "أشور" و"ميديا" و"فارس".. ولكن هذه الإمبراطورية الكبيرة ما لبثت أن زالت خلال جيل واحد بعد وفاته.

وقد كانت هذه الإمبراطورية قصيرة الجل جدا بحيث لم يكنها وجودها القصير من أن تساهم في الحضارة بنصيب يذكر، ولم يؤثر عنها إلا أنها مهدت الطريق وعبدته للحضارة الفارسية الموشكة على الظهور، فالميديون هم الذين أعطوا فارس لغتهم الآرية، وهم الذين أعطوها حروف هجائهم التي تبلغ ستة وثلاثين حرفا، وهم الذين علموهم أن يستغلوا عن قوالب الطين وأن يستعيضوا عنها في الكتابة بالرقائق والجلود والأقلام، وهم الذين علموهم الإكثار من استعمال الأعمدة في البنايات، وهم الذين لقنوهم قوانينهم الأخلاقية، وهم الذين أرشدوهم إلى أن يعتمدوا أثناء السلم على الزراعة، وان يتفانوا أثناء الحرب في الشجاعة، وهم أيضا الذين

لقنوهم دين "زردشت" وعرفوهم بإلهة "أهور مزدا" و"أهرمن" وهم كذلك الذين علموهم تقاليد الأسرة الخاضعة لرئيسها، وتعدد الزوجات وجملة أخرى من القوانين الشبيهة بقوانيين الإمبراطوريات المتأخرة التي يمكن وصفها جميعا بما ورد في عبارة دانيال حينما قال: "إن قوانين الميديين والفرس لا تقبل التغيير والتبديل" ... أما آداب الميديين وفنونهم فقد ضاعت جميعا ولم يبق منها حرف ثابت أو حجر قائم.

وكان انحطاط "الميديين" وزوالهم أسرع بكثير مما لزم لنشأتهم وقيامهم، فقد برهن "استياجس" وهو الذي خلف أباه "سياكزارس" على أن الملك مغامرة يتناوب على وراثتها أصحاب العقول الجبارة أو أصحاب العقول ذات الخلل والجنون، وقعت في ميراثه مملكة هادئة، نشر الأمن لواءه عليها، فاطمأن إلى ما ورث وأخذ يتنعم بما فيها في دعة وسكون، واحتذت الرعية حذوه فنسى الناس أخلاقهم القديمة وطرائقهم السليمة، وأقبل الثراء عليهم من حيث لا يحتسبون فلم يجيدوا استعماله ولم يحسنوا البذل والإنفاق، وأصبحت الطبقة العليا أسير لأسباب الترف ومختلف البدع، ولبس الرجال السراويل المطرزة ذات الوشي وأسرف النساء في تغطية أنفسهن بمواد التجميل والحلي، وتعدوا ذلك إلى

الخيل فألبسوها الكسى الموشاة بالقصب والذهب، وتغير حال هؤلاء القوم، فأخذوا يتنقلون بين الولائم والأفراح في عربات باهظة الثمن والتكاليف، وكانوا من قبل قوم بسطاء من الرعاة، يحسون بشدة البهجة والسرور، إذا استطاعوا أن يتنقلوا في مركبات خشنة ذات عجلات غليظة، قدت من جذوع الأشجار دون تهذيب أو تشذيب؛ وكان الملوك "الميديون" الأولون يفخرون بالعدل والإنصاف، ولكن "استياجس" حينما غضب على "هار باجوس" قدم إليه جثة أبيه بعد أن مزق أوصالها ونزع عنها رأسها، ثم اضطره إلى أن يأكل منها فأخذ "هار باجوس" يأكل، وهو يقول: "إن كل أمر يأتيه الملك يسره ويرضيه ..!!" ولكنه ما لبث أن ساعد "قورش" على عزل "استياجس" فتمكن هذا الشاب الذكي، وقد كان حاكما على ولاية "أنشان" في فارس من قبل الميديين، أن يثور ضد هذا الملك المستبد المخنث الذي كان يقيم في "اكباتانا" وأن يفوز عليه بنصر موزر، رحب به الميديون أنفسهم وفرحوا له، فقبلوه ملكا عليهم دون أن تصدر منهم كلمة واحدة من كلمات المعارضة أو الاحتجاج، وهكذا امتنعت "ميديا" بهذه الحادثة الوحيدة من أن تستمر سيدة ل "فارس" وانقلب الحال فأصبحت "فارس" بعد ذلك سيدة لها، وأخذت تعد العدة لتسود بلاد الشرق الأدنى برمته.

الفصل الثاني

عظماء ملوك فارس

قورش ذو الشخصية الرائعة وأساليبه المهذبة، قمبيز، دارا الأكبر، غزو اليونان

كان "قورش" كما يقول "إمرسون" واحدا من الحكام الموهوبين الذين تبتهج قلوب الناس أجمعين عند تتويجهم، فقد كان بطبعه ملكيا في روحه وأعماله، حازما في الإدارة وتدبير الأمن، جادا في غزواته وفتوحاته، كريما في معاملته للمغلوب، محبوبا من أعدائه السابقين، ومن أجل ذلك كله فقد جعله اليونان مدارا لجملة من القصص الرائعة، واعتقدوا أنه أكبر الأبطال الذين سبقوا "الإسكندر" في الظهور والوجود، ومما يؤلمنا حقا أن ما كتبه "هيروردوت" و"كسنيفون" لا يساعدنا على تصويره صورة يمكن الوثوق إليها أو الاعتماد عليها، فالأول منها خلط كثيرا من القصص بالتاريخ، بينما عمد الآخر إلى جعل حياته مقالة طويلة عن الفنون الحربية، يتخللها أحيانا محاضرات في التربية والفلسفة، وكثيرا ما اشتبه عليه الأمر فخلط بين "ورش" و"سقراط" ولو أننا نزعنا هذا القصص الممتع وطرحناه جانبا، لبقى لنا "قورش" شيخا ذاويا لا حياة فيه، ولما أمكننا أن نقول عنه أكثر من أنه كان وسيم الطلعة جميل الهندام، جعله الفرس إلى نهاية فنهم القديم مثالهم في جمال الخلقة والجسد، وانه كان مؤسس "الدولة الأكمينيية" التي امتازت بعظماء الملوك الذين حكموا فارس في أجمل عصورها التاريخية وأعلاها شأنا، وانه هو الذي نظم الجند في "ميديا" و"فارس" بحيث أصبح جيشه لا يقهر ولا يغلب، وانه هو الذي

استولى على "سرديس" و"بابل" وأنهى سيطرة الساميين في غرب آسيا مدة السنوات الألف المقبلة من بعده، وانه هو الذي ضم إلى حوزة الإمبراطورية الفارسية كل البلاد التي كانت في أيدي "أشور" و"بابل" و"ليديا" و"آسيا الصغرى" فأصبحت مملكته بذلك أكبر المؤسسات السياسية التي ظهرت قبل الإمبراطورية الرومانية، وواحدة من خيرة الدول التي اشتهرت في ثنايا التاريخ بحسن الإدارة وصلاح الحكم.

وصورة "قورش" فيما أحاط به من قصص وخرافات، تبديه لنا على أنه أحب الفاتحين وأقربهم إلى القلوب، وانه أقام مملكته على دعائم قوية من الكرم والسخاء، وقد عرف أعداؤه أنه لين العريكة فلم يحاربوه بروح الشجاعة المستيئسة التي يبديها الرجال عندما لا يجدون بدا من القتال أو الموت، ورأيناه كما ذكر "هرودوت" يخاص "كروزوس" من قبره في "سرديس" ويجعله واحدا من أشرف مستشاريه، ورأيناه أيضا يعامل اليهود معاملة كلها كرم وإحسان.

وأول قاعدة قامت عليها سياسته هي أن يترك الشعوب المختلفة التي تتكون منها إمبراطوريته حرة طليقة في اختيار العبادة الدينية التي يشاؤونها والمعتقدات التي يرونها، ولا شك أنه أدرك تمام الإدراك أهمية هذه القاعدة الأولى من قواعد السياسة التي

تقول بأن الدين أقوى أثرا وأبعد نفوذا من تأثير الدولة والحكومة، ولم يقدم أثناء حياته على تحطيم المدن وتخريب المعابد، بل على العكس من ذلك أظهر كثيرا من العناية والاحترام لمعبودات الشعوب حتى خضعت له، وساهم بنصيب كبير في الإبقاء على الأضرحة والمعابد القديمة، حتى تعلق به "البابليون" أشد التعلق، بعد ما قاوموه فترة طويلة، لنهم راوه يعمل جاهدا على المحافظة على أماكنهم المقدسة ويكرم آلهتهم ومدافنهم، وكان من دأبه إذا نزل في بقعة من البقاع أن يقدم القرابين للآلهة المحليين، حاله في ذلك حال "نابليون" الذي لم يضره أن يعترف بجميع الأديان والمذاهب، بل ربما فاقه في أساليبه فأرضى جميع الآلهة وفاز بمعونتهم أجمعين، وقد شابه "نابليون" أيضا في مسألة أخرى، هي موته مثله نتيجة لكثرة أطماعه وبعد أمانيه، فبعد ما استولى على "الشرق الأدنى" برمته أقدم على سلسلة من المعارك أراد بها أن يخلص "ميديا" و"فارس" من تدخل القبائل البدوية البربرية التي كانت تعيش في أواسط آسيا؛ ويبدو أنه وصل في حملاته هذه إلى شواطئ "جيحون" شمالا وإلى حدود الهند شرقا، ولكنه قتل فجأة وهو في أوج مجده عندما كان يحارب الـ"مساجيته" وهم قبيلة مجهولة الأصل كانت تعيش على الشواطئ الجنوبية لبحر قزوين، وشابه قورش الإسكندر أيضا لتمكنه مثله من أن يفتح إمبراطورية

واسعة الأرجاء لم يعش ليتعهدها بالتنظيم والتنسيق.

وشابت أخلاق "قورش" نقيصة كبيرة، تمثلت فيما كان يبديه أحيانا من قسوة زائدة وغلظة بالغة، وقد ورث هذه النقيضة، دون غيرها من شيم الكرم والسخاء، لابنه "قمبيز" فكان أول ما فعله هذا الابن الشاب أن أمر بإعدام أخيه ومنافسه "سمرديس" ثم أغرته ثروة مصر وغناها فطمع في أن يمد حدود إمبراطوريته الفارسية لتشتمل على شواطئ النيل، ونجح في ذلك فعلا، ولكن نجاحه على ما يظهر كان باهظ التكاليف والنفقات، إذ أدى به إلى فقدان الصواب وضياع الوعي والتمييز، ذلك لأنه عندما استولى على "ممفيس" بسهولة زائدة، أغراه ذلك النصر اليسير على أن يرسل جيشا قوامه خمسون ألف فارس إلى واحة آمون ليضمها إلى حوزته، ولكن هذا الجيش هلك برمته في الصحراء؛ وأرسل بعثة حربية أخرى إلى "قرطاجنة" أخفقت فيما كلفت به لأن بحارة الأسطول الفارسي كانوا جلهم من الفينيقيين، فرفضوا أن يهاجموا هذه المستعمرة الفينيقية.

وقد نتج عن ذلك كله أن فقد "قمبيز" صوابه وتناسى كل ما عرف عن أبيه من رحمة واعتدال، فبدأ يظهر احتقاره علنا لديانة المصريين وأمسك بخنجره في ازدراء وامتهان فطعن به العجل الذي

يقدسه المصريون ويعتبرونه إله "أبيس" وأخرج المومياوات من مدافنها ونبش المقابر الملكية دون أن يهتم بما وراءها من لعنات قديمة، وشفع ذلك كله باحتقار المعابد وإحراق ما فيها من أصنام وتماثيل وقد بدا له أنه يستطيع بذلك أن يشفي المصريين من خرافاتهم ولكن المرض سرعان ما أصابه، وانتابته فيما يظهر علة الصرع فاعتقد المصريون اعتقادا جازما أن آلهتهم قد انزلوا به ما يستحق من لعنة وعقاب، وان دينهم قد سلم بعد هذه المحنة من كل شك وجدال ..!! وكأنما شاء قمبيز مرة أخرى أن يبدي مساوئ الملك، فجمع جموعا نابليونية وأقدم على قتل أخته وامرأته "روكسانا"، وأردى ابنه "بركساسبس" برمية سهم من قوسه، وامر بأثني عشر رجلا من نبلاء الفرس فدفنوهم على قيد الحياة، وحكم بالإعدام على "كروزوس" ثم ندم على فعلته، وسر سرورا شديدا عندما علم أن حكمه لم ينفذ فيه وبادر باستبدال هذا الحكم فأمر بمعاقبة الضباط الذين تأخروا في تنفيذه ...!! ووصله الخبر أثناء رجوعه إلى "فارس" أن أحد المدعين قد استولى على عرشه، وأن الناس يؤيدونه بثورة شاملة فاختفى منذ ذلك الوقت من صفحات التاريخ، وقالت الروايات المتناقلة عنه انه أقدم على قتل نفسه.

أما المطالب بالعرش فقد أدعى انه "سمرديس" وأنه قد نجا بأعجوبة من شر أخيه "قمبيز" ولم يكن هذا المطالب في الحقيقة إلا متعصبا دينيا من أتباع المذهب المجوسي القديم كان يسعى إلى تحطيم الديانة "الزردشتية" التي أصبحت الدين الرسمي للدولة الفارسية، وقد تلت ذلك ثورة أخرى أدت إلى عزله وإقصائه وانتخب النبلاء السبعة الذين نظموا هذه الثورة واحدا من بينهم هو "دارا" ابن "هشتاسبس" فنصبوه على العرش، وبهذه الطريقة الثورية التي أدت إلى سفك كثير من الدماء بدأ عهد "دارا" أكبر ملوك الفرس وأعظمهم شأنا.

ومن الملاحظ أنه يقترن عادة بولاية العرش في الممالك الشرقية فتن كثيرة في القصور الملكية، يسعى بها أصحابها إلى الاستيلاء على السلطة، وكذلك ثورات في المستعمرات التي تسنح لها الفرصة أثناء ذلك الاضطراب والفساد أو أثناء وجود الحاكم المستضعف لكي تعمل على استرداد حريتها واستقلالها، وقد مهد استيلاء "سمرديس" على العرش، ثم مقتله بعد ذلك، فرصة سانحة للحكام التابعين لفارس، فأخذ حكام مصر وليديا يرفضون الخضوع لها، وثارت عليها في وقت واحد ولايات كثيرة منها "سوزيانا" و"بابل" و"ميديا" و"أشور" و"أرمينيا" وٍ"ساكيا". ولكن

"دارا" أسرع إلى إخضاعها جميعا في شدة وحزم، فحاصر "بابل" فترة طويلة، فلما تم له الاستيلاء عليها أمر رجاله أن يصلبوا ثلاثة آلاف رجل من خيرة رجالها حتى يصبحوا عبرة للبلاد الأخرى فتبادر إلى تقديم الخضوع والتسليم، واتبع ذلك بسلسلة من المعارك السريعة كان لها الفضل في تهدئة الولايات الثائرة واحدة في أثر الأخرى، ولقد أدرك عند ذلك انه من السهولة بمكان أن تصاب الإمبراطورية الواسعة بأزمة من الأزمات فتتمزق أوصالها في سرعة ويسر، فطرح أسلحة الحرب جانبا وأصبح بعد ذلك من أعقل الحكام الذين ورد ذكرهم في التاريخ، واشتغل جاهدا في تنظيم مملكته على نسق أصبح المثال الذي يحتذى للتنظيم الإمبراطوري حتى وقت سقوط روما، وكان لحكمه الفضل في إعطاء الأقطار القريبة من أسيا فترة من الرخاء والنظام لم تعهدها من قبل حينما كانت تزخر بالفتن والثورات، وأصبحت جل أمانيه أن يحكم بقية أيامه في هدوء وسكون، ولكن القدر كتب على الإمبراطوريات أن تكون مباءة للحروب الدائمة والفتن المتصلة، ذلك لأن الشعوب التابعة لها يجب أن تغلب على أمرها من جديد بين الفينة والفينة، ولن الغزاة يجب أن يحافظوا على عاداتهم وفنونهم التي عرفوها أثناء الحروب والقتال، ولن الأقدار قد تبعث في أية لحظة من اللحظات بإمبراطورية جديدة تأخذ في منافسة

الإمبراطورية القديمة ومنازعتها السطوة والسلطان، وفي هذه الحالة الخيرة تسعى الإمبراطورية القديمة إلى خلق الحروب إذا لم تنشأ من تلقاء نفسها لتدرب النشء على احتمال المعارك بما فيها من قسوة وغلظة واستساغة للموت من أجل الوطن والإمبراطورية.

كان ذلك كله سببا من الأسباب الهامة التي دعت "دارا" إلى توجيه جيوشه إلى الولايات الجنوبية من روسيا فاجتازت البوسفور والدانوب والفولجا لكي يخضع قبائل "السيذيين" المغيرين، ثم انتقل بجيوشه مرة أخرى عبر أفغانستان فأجتاز السلاسل الجبلية في وادي السند، واستطاع أن يضم إلى حوزته كثيرا من الأقطار الشاسعة الزاخرة بالأنفس والدنانير.

فأما حملته على اليونان فيجب أن نلتمس لتبريرها أسباب أخرى أخطر من تلك التي ذكرناها، وقد شاء "هيرودوت" أن يوحي لنا بان "دارا" قد أقدم على هذه الخطوة التاريخية بسبب واحدة من نسائه أسمها "اتوسا" ضايقته بذكر اليونان أثناء اضطجاعها إلى جواره في مرقده ...! وربما كان من الأجدر بنا أن نعتقد أن هذا الملك وجد في المدن والمستعمرات اليونانية كل المقومات التي تساعد على نشوء إمبراطورية حقيقية أو إيجاد حلف فعلي يهدد سيادة الفرس في غرب آسيا، فلما ثارت "أيونيا"

وهمت إلى نجدتها "اسبرطة" و"أثينا" اضطر "دارا" اضطرارا إلى الحرب والقتال. ولسنا نشك في أن العالم بأجمعه يعرف قصة اجتيازه لبحر "إيجة" وكيف باء بالهزيمة في موقعة "ماراتون" وكيف عاد كسيرا إلى فارس حيث حاول مرة أخرى أن يعد المعدات الوفيرة للغارة على اليونان من جديد، ولكنه أصيب بضعف مفاجئ قضى على حياته.

الفصل الثالث

الحياة الفارسية

الإمبراطورية، الشعب، اللغة، الفلاحون الطرق والمواصلات التجارة والصناعة

بلغت الإمبراطورية الفارسية أوسع حدودها في عهد "دارا" فكانت تشتمل على عشرين ولاية أو إمارة من بينها "مصر" و"فلسطين" و"سوريا" و"فينيقيا" و"ليديا" و"فريجيا" و"ايونيا" و"كابادوسيا" و"سيليسيا" و"أرمينيا" و"أشور" و"القوقاز" و"بابل" و"ميديا" و"فارس" و"أفغانستان" و"بلوجستان" وجزء من "الهند" يقع غرب نهر السند وبلاد "الصغد" و"بكتريا" وبلاد "المساجيته" وقبائل أخرى من أواسط آسيا. ولم يسجل التاريخ أن مثل هذه المساحات الشاسعة قد خضعت من قبل لحاكم واحد وحكومة واحدة.

في ذلك الوقت لم تكن "فارس" التي حكمت أربعين مليونا من النفس هي نفس المملكة التي تعرف لنا الآن بهذا الاسم، وتعرف لدى سكانها باسم "إيران"، بل كانت عبارة عن مساحة صغيرة من الأرض، تقع مباشرة شرق الخليج الفارسي، وتعرف لدى قدماء الفرس باسم "بارس" ولدى الفرس الحاليين باسم "فارس" أو "فارستان". وهذه الولاية مكونة في أغلب أجزائها من الجبال والصحاري وتفتقر إلى الأنهار ومجاري المياه، وتتعرض لبرد الشتاء

القارس وحر الصيف اللافح[1] ومن أجل ذلك كله لم تكن مواردها كافية لتغذية سكانها الذين بلغوا مليونين من النفس إلا بما كانت تجلبه إليها التجارة أو الغزوات من مساعدات خارجية، وسكانها رجال جبليون أشداء، يرجع أصلهم كالميدين إلى العنصر الهندي الأوروبي، وربما أتوا إليها من جنوب روسيا، وفي لغتهم وديانتهم المبكرة كثير من الدلائل التي تثبت وجود العلاقة الوثيقة التي تربطهم بجماعة الآريين الذين اجتازوا أفغانستان ووصلوا إلى شمال الهند وأصبحوا هناك الطبقة الحاكمة من أصحاب النفوذ والسلطان، وقد وصف "دارا الأول" نفسه في "نقش رستم" بأنه: "فارسي بن فارسي وآري من سلالة الآريين". وتحدث الزردشتيون عن موطنهم الأول فأسموه "ايزيانا فيجو" أي موطن الآريين[2] واستعمل "سترابو" كلمة "آريانا" في نفس المعنى الذي تستعمل فيه الآن كلمة "إيران".

وكان الفرس فيما يظهر أجمل الشعوب التي سكنت بلاد الشرق الأدنى في أقدم الأزمنة؛ فقد صورتهم التماثيل في صور

---

(١) يقول "سترابو" أن الصيف في مدينة "السوس" حار جدا حتى أن الحيات والأفاعي لا تستطيع أن تعبر الطريق من إحدى ناحيته إلى الأخرى، لن حرارة الشمس المتقدة تحرقها وتقضي عليها في الحال.

(٢) يعتقد الكثيرون أنه عبارة عن إقليم "أران" على نهر الأراك.

رجال يمتازون باعتدال القامة وقوة الهامة، قد اكتسبوا من جبال بلادهم ما عرفوا به من قوة وصلابة، كما أكسبهم ثراؤهم كثيرا من التهذيب والكياسة؛ قسماتهم متناسقة تناسقا جميلا، وأنوفهم مستقيمة كأنوف اليونان، وعليهم سمات النبل وطيب الأرومة، اقتبسوا من الميديين ملابسهم، ثم أخذوا عنهم أيضا أنواع الحلي وأدوات الزينة، وكانوا يعتبرون الكشف عن شيء من الجسد غير الوجه مما يتنافى مع قواعد الحشمة والأدب، ومن أجل ذلك فقد كانوا يغطون انفسهم من قمة الرأس، ويتوجونها بالعمامة أو القبعة، إلى أخمص القدم يكسونها بالأحذية أو الأخفاف؛ وكانوا يرتدون سراويل مثلثة الطبقات وقميصا من الكتان الأبيض ولباسا من طبقتين تمتد أكمامه حتى تخفي السواعد والأيدي، ويعقدون على وسطهم زنارا يشدونه عليها شدا رقيقا، فكانت هذه الملابس تضمن لهم ما يشاؤون من دفء في الشتاء أو طراوة في وقت الصيف، أما ملكهم فكان يتميز عن سائر شعبه بارتداء السراويل ذات اللون القرمزي والحذية ذات الأزرار المصفرة في لون الزعفران، ولم تكن ملابس النساء تختلف عن ملابس الرجال في شيء إلا في اشتمالها على فتحة مستطيلة عند الصدر، وكان من عادة الرجال أن يطيلوا ذقونهم وان يعقصوا شعورهم في ضفائر مجدولة، ثم استعاضوا عن ذلك في العصور المتأخرة برؤوس

مستعارة من الشعر.

وكان الرجال والنساء في أسعد أوقات الإمبراطورية يكثرون من استعمال أدوات التجميل ومساحيق الزينة؛ فاستعملوا الزيوت العطرية لتجميل البشرة وتصفيفها من الأوشاب، والأصباغ لصبغ الجفون حتى تبدو الأعين واسعة ناصعة، ونشأت من بينهم طبقة من الناس أسماها اليونان "كوزمتاي" أي "المزينين" اختصوا بتجميل طبقة النبلاء والأرستقراطية، وكان الفرس بالإضافة إلى ذلك خبراء في الروائح والعطور حتى راج بين القدماء أنهم اخترعوا بعض مساحيق الزينة والأدهنة، ولم يحدث أن خرج ملكهم قط إلى الحرب دون أن يحمل معه حقيبة زيوته العطرية، يتعطر بها على السواء في أوقات النجاح والظفر أو في أوقات الخيبة والفشل.

وقد تداولت في فاس كثير من اللغات أثناء العصور التاريخية التي مرت عليها، فكان حديث القصر والخاصة في أيام "دارا الأول" عبارة عن "الفارسية القديمة" وهي لغة قريبة الصلة جدا باللغة "السنسكريتية" حتى ليبدو لنا في وضوح أنهما كانتا في وقت من الأوقات لغتين متقاربتين تشعبتا من لغة واحدة قديمة هي الفارسية والقديمة من أبناء عمومة اللغة الإنجليزية الحالية[1]. ثم

---

(١) فيما يلس أمثلة للمشابهة بين هذه اللغات:

تطورت اللغة الفارسية القديمة وانشعبت إلى شعبتين الأولى منهما "الزند" وهي عبارة عن لغة ال"زند أفستا" والثانية "البهلوية" وهي عبارة عن لغة هندية أوروبية نشأت منها اللغة الفارسية الحديثة.

ومنذ تعلم الفرس الكتابة استعملوا في نقوشهم الخط المسماري البابلي، كما استعملوا في كتابة وثائقهم الحروف الآرامية. وقد بسطوا المقاطع البابلية الكثيرة، وأنقصوها من ثلاثمائة مقطع إلى ستة وثلاثين، وما زالت تتدرج في تطورها حتى أصبحت حروفا يشتمل عليها هجاؤهم المسماري.

وكانت الكتابة لدى الفرس تعتبر من المتع المخنثة التي لا يجدر بالرجل أن يصرف فيها شيئا من وقته الذي يجب أن يقضيه بأكمله في الحب والحرب والصيد، ومن أجل ذلك لم يرق للفرس أن يتواضعوا قليلا حتى ينتجوا شيئا من الآداب العالية الرقيقة.

وكان الرجل العادي أميا لا يعرف القراءة والكتابة، وكان يبذل

الإنجليزية	الألمانية	اللاتينية	اليونانية	السنسكريتية	الفارسية القديمة
Father	Vater	Pater	pater	Pitar	Pitar
Name	Nahme	Nomen	Onoma	Nama	Nama
Nephew	Neffe	Nepos	Anepsios	Napat	Napat
Bear	Fuhren	Ferre	Ferein	Bhri	Bar
Mother	Mutter	Mater	Meter	Matar	Matar
Brother	Bruder	Frater	Bhrater	Bhratar	Bratar
stand	stehen	Sot	istemi	stha	sta

كل جهوده في الزراعة وغرس الأرض، وقد رفعت "الزند افستا" قدر الزراعة وجعلتها أشرف المهن الإنسانية على وجه الإطلاق وأكثرها إرضاء ل "آهور مزدا" إلههم الكبر المتعالي. وكان جزء من الأرض يقوم على زراعته ملاكه الفلاحون، فتجتمع عائلاتهم وتنضوي في تعاون زراعي يهدف إلى زراعة ما يملكون من أراض واسعة ومساحات كبيرة، وكان جزء آخر من الأرض يمتلكه نبلاء من أصحاب الإقطاعات، يقوم على زراعته القاطنون به لقاء جزء يدفع إليهم من المحصول، وقد يقوم على زراعته العبيد والأرقاء الذين يجلبون إليه من الخارج[1]؛ وكانت الثيران تجر المحاريث ذات الأسلحة المعدنية الحادة، وكانت طرق الري الصناعية تستعمل في جلب الماء من الجبال إلى الحقول والمزارع، وكان الشعير والقمح هما المحصولين الأساسيين اللذين يعتمد عليهما السكان في غذائهم بالإضافة إلى ما يأكلون من لحم كثير وإلى ما يحتسون من شراب وخمور، وأثر عن "قورش" أنه أمر بتوزيع الخمر على عسكره؛ وأثر عن وزراء الفرس انهم لا يقومون بأهم المناقشات والأعمال إلا وهم ثملين، حتى إذا أصبح الصباح وزال عن الرؤوس تأثير الكأس والراح، راجعوا قرارتهم وأنفذوا منها ما يشاؤون.

---

(١) لم يكن بين العبيد أحد من أصل فارسي.

وكان شراب ال"هوما" المسكر يقدم قربانا للآلهة، وكانوا يعتقدون أنه يبعث في شاربيه روح الاستقامة والعفاف على عكس غيره من أنواع الأشربة التي لا تولد في الأنفس إلا الميل إلى العربدة وسرعة الغضب.

أما الصناعة فكانت قليلة الانتشار في فارس؛ لأنها قنعت منذ البداية بأن تدع أمم الشرق الأخرى تمارس كافة الصناعات واكتفت بان تشتري منها منتجاتها لقاء ما تقتضيه منها من خراج أو جزية، وأبدت فارس كثيرا من ضروب المهارة والعبقرية في تمهيد الطرق وتحسين المواصلات ووسائل النقل، فقام المهندسون في أيام "دارا الأول" ببناء الطرق الواسعة التي تربط بين عواصمه المختلفة، ومن بين هذه الطرق طريق رئيسي يصل بين "السوس" و"سرديس" بلغ طوله ألف ميل وخمسمائة ميل، وكانوا يضبطون مقاييس الطرق بالفراسخ ويقول هيرودوت: "أن كل فرسخ رابع توجد إلى جواره المحطات الملكية وإلى جوارها الفنادق الرائعة" وكانوا يتوخون الحذر في اختيار الطريق أن يسلكوها في المناطق الآمنة العامرة بالسكان، وكانت تقف لدى كل محطة من المحطات جياد النوبة على أهبة الاستعداد لنقل البريد، وكانت جياد البريد الملكي تجتاز الطريق ما بين "السوس" و"سرديس" في نفس الوقت الذي

يستغرق الآن رتل من السيارات، أي في أقل من أسبوع واحد، بينما كان المسافر العادي في ذلك الوقت يحتاج على الأقل إلى تسعين يوما لاجتيازه.

وكانوا يعبرون الأنهار الواسعة بواسطة القوارب، ولكن المهندسين كان في وسعهم متى شاءوا أن يبنوا القناطر والمعابر على نهر الفرات أو عبر البوسفور وأن يجعلوها من المتانة بحيث تعبر عليها مئات الأفيال في امن وسلامة تامتين.

وكانت هنا لك طرق أخرى تخترق مفاوز أفغانستان إلى بلاد الهند وتجعل من مدينة "السوس" المركز الذي تلتقي عنده الطرق ويجلب إليه الثراء الخرافي الذي اشتهرت به بلاد المشرق، وكانوا ينشئون الطرق أساسا لأغراض حربية وحكومية حتي يتيسر لهم بواسطتها تثبيت الحكم المركزي والإداري، ولكن هذه الطرق ساعدت أيضا على تشجيع التجارة وتبادل العادات والأفكار وكذلك المعتقدات والخرافات التي لا يستغنى عنها الجنس البشري، وقد انتقلت بواسطتها فعلا فكرة الملائكة والشياطين من الأساطير الفارسية إلى القصص اليهودي والمسيحي.

أما الملاحة فلم تكن قد بلغت من التقدم ما بلغته وسائل النقل البري، ولم يكن الفرس يملكون أسطولا خاصا بل كانوا

يستعملون سفن الفينيقيين واليونانيين أو يستولون عليها لأغراضهم الحربية، وقد حفر "دارا" قناة كبيرة تصل بين فارس والبحر الأبيض مخترقة البحر الأحمر والنيل ولكن خلفاءه أهملوا العناية وتركوها للرمال الذارية المتنقلة، وخرج "اكزرسيس" على رأس جزء من أسطوله يريد أن يطوف حول إفريقيا ولكنه لم يلبث بعد اجتيازه "أعمدة هرقل" أن عاد فاشلا تعلو وجنتيه حمرة الخجل والعار.

وكان الفرس يحتقرون التجارة ويعتبرون السوق مباءة لمختلف الخدع والأكاذيب، ومن أجل ذلك فقد تركوها للأجانب فأصبحت في أيدي البابليين والفينيقيين واليهود؛ وكان الأغنياء يفتخرون باستطاعتهم قضاء حوائجهم بما ينبت في حقولهم أو يوجد في مخازنهم، دون أن يضطروا إلى تلويث أصابعهم بعمليات البيع والشراء، أما الأموال وفوائد النسيئة فكانت في بداية الأمر تدفع عينا من البضائع وخاصة المواشي والحبوب، ولم يستعملوا النقد إلا في عصور متأخرة عندما استعاروه من "ليديا" وقد أصدر "دارا" قطعا من الذهب والفضة عليها صورته تعرف باسم

ال"دريق"[1] وكانت قيمة القطعة الذهبية منها تقوم إلى قيمة القطعة الفضية بنسبة ١٣.٥ إلى ١ ومن هنا كانت نشأة النسبة بين هذين المعدنين في المعاملات النقدية الحديثة.

---

(١) هذه الكلمة لا صلة لها باسم "دارا" وهي من كلمة "زريق" الفارسية ومعناها عملة من الذهب وقيمة القطعة الذهبية منها كانت تبلغ خمسة دولارات، وثلاثة آلاف منها كانت تزن منا فارسيا.

الفصل الرابع

تجارب الحكم والإدارة

الملك، النبلاء، الجيش، القانون، عقوبة وحشية فوز في الإدارة

قامت حياة فارس على السياسة والحرب أكثر مما قامت على المال والاقتصاد، ولم يكن عماد ثروتها يقوم على الصناعة، وغنما كان يقوم على القوة والسلطان، ومن أجل ذلك كان كيانها شبيها بكيان الجزيرة الحاكمة تعتمد على ما حولها من بحار شاسعة تدين لها بالخضوع والولاء، أما طريقة التنظيم الإداري التي حافظت على هذا البناء فكانت من أحكم الطرق وأبدعها على مر التاريخ، كان الملك يقوم على رأس هذا البناء ويعرف باسم "خشاثرا" أي المحارب[١] وهو لقب يدل على الأصل الحربي وعلى الصفة الحربية في نشأة "الملكية الفارسية".

وكان جماعة من الملوك الضعفاء يدينون للحاكم الفارسي بالطاعة، ومن أجل ذلك فقد فضل أن يلقب نفسه بلقب "ملك الملوك" ولم يصادف شيئا من الاحتجاج على دعواه هذه من قطر من أقطار العالم القديم إلا ما كان من اليونان الذين اكتفوا بتسميته باسم "بازليوس" أي الملك. وكانت سلطته نظريا استبدادية، تكفي الكلمة الواحدة تصدر من فمه ليقتل الرجل دون أية محاكمة أو إبداء

---

(١) هذه الكلمة مازالت مستعملة حتى اليوم في تسمية ملك فارس فهو يعرف باسم "شاه" ونهايتها واضحة في كلمة "سترب" "Satrap" بمعنى حاكم إقليمي في فارس وكذلك في كلمة "كشاتريا" بمعنى الطبقة المحاربة في بلاد الهند.

ما يبرر ذلك؛ وكان للملك أحيانا أن يمنح هذا الحق لأمه أو لكبيرة زوجاته فتقتل من شاءت في زهو وإسفاف، ولم يكن في إمكان أحد أن يجرؤ على نقد الملك أو لومه على أي عمل من الأعمال اللهم إلا إذا استثنينا عددا قليلا جدا من أكبر نبلائه، وكان الرأي العام ضعيفا غاية الضعف يقهره الحرص والحذر.

فإذا قتل الملك طفلا بريئا أمام أعين أبيه كان على الأب أن يهنئ الملك على إحكامه الرماية وإصابة الهدف ..!! وإذا أمر بجلد جماعة من المذنبين كان عليهم أن يشكروه لأنه يتولاهم بعنايته ولا يحرمهم من رعايته ..!!

وكان من حق الملك أن يملك، كما كان له أن يحكم فعليا إذا شاء أن يكلف نفسه بعض الجهد والعناء كما فعل "قورش" و"دارا الأول" ولكن الملوك المتأخرين وكلوا أمر الحكم لجماعة من أتباعهم النبلاء أو من خصيان القصور واكتفوا بقضاء حياتهم في الحب والنرد والصيد، وكان الخصيان يديرون شئون القصر فيوكل إليهم الإشراف على الحريم وتأديب الأمراء، فاستطاعوا بهذه الميزة التي اختصوا بها أن ينقعوا نقيعا ساما من الفتن والدسائس في كل عصر

من العصور[1].

وكان للملك أن يختار ولي عهده من بين أبنائه، ومع ذلك فقد ظلت وراثة العرش في أغلب الأحيان عرضة لما تقرره الثورات والفتن.

ولم يكن يحد من سلطة الملك عمليا إلا قوة الطبقة الأرستقراطية التي تتوسط بين الشعب والعرش، وقد جرت العادة على أن يمنح الملك كثيرا من الحقوق والميزات الاستثنائية لأفراد القبائل الست التي اشتركت مع "دارا الأول" في تعريض نفسها لمخاطر الثورة ضد "سمرديس الكاذب" فكانوا يستشيرونهم في جميع الأمور الهامة ذات الخطر، وكان كثير من النبلاء يزورون القصر ويشتغلون بتدبير أمور الملك، وكان الملك يحمد لهم مشورتهم ويوليها كثيرا من عنايته، وكان أغلب رجال الطبقة الأرستقراطية يدينون للعرش بالولاء والإخلاص، لأن الملك هو الذي يقطعهم الإقطاعات والولايات في مقابل أن يمدوه بالرجال والمعدات إذا اقتضى الأمر دخوله في معامع الحرب وحومات القتال، وكانوا يتمتعون في إقطاعاتهم بالسلطة التامة التي تخول لهم

---

(١) كانت "بابل" تبعث سنويا بخمسمائة من خصيان الفتيان ليقوموا بالخدمة والحراسة في الحريم الإيراني.

جمع الضرائب وسن القوانين وإنفاذ الحكام والإشراف على القوات المسلحة التي تحت إمرتهم

وكان العماد الحقيقي للسلطة الملكية والحكم الإمبراطوري قائما على الجيش، شأنهم في ذلك شأن سائر الإمبراطوريات .. تستطيع المحافظة على كيانها ما دامت قادرة على المحافظة على قدرتها العالية في القتل وسفك الدماء، فأصبح من الواجب على كل ذكر سليم الجسم بين الخامسة عشرة والخمسين من عمره أن ينضم إلى الصفوف ويشترك في القتال متي أعلنت الحرب في أي وقت من الأوقات.

وقد ذكروا أن أحد الآباء كان له ثلاثة أبناء فسأل "دارا" أن يعفي واحدا منهم من الخدمة العسكرية فأمر "دارا" بإعدامهم جميعا في التو والساعة.

وأرسل والد آخر أربعة من أبنائه إلى ميدان القتال والتمس من "اكزرسيس" إعفاء الخامس وتركه للقيام بأعباء أسرته فصدر الأمر الملكي بشق جسده إلى نصفين وتعليقها على ناحيتي الطريق الذي كان على الجيش أن يسلكه، وكان الجند يخرجون إلى القتال في جلبة الموسيقات الحربية الصاخبة وتهليل الأهلين الذين تخطوا سن الحرب والنزال.

وكان "الحرس الملكي" يقوم على رأس الجيش، وكان قوامه ألفين من الفرسان والفنين من المشاة .. جميعهم من نبلاء القوم وسادتهم، وقد اختصوا بأمر واحد هو حراسة الملك والمحافظة على سلامته. أما الجيش الأساسي فكان يتكون برمته من "الفرس" و"الميديين" وكانوا ينتخبون من هؤلاء وحدهم الحاميات التي يبعثون بها لصيانة الأمن والنظام في الأنحاء الحربية الهامة من أنحاء الإمبراطورية. أما الجيش الكامل فكان يتكون بالإضافة إلى هؤلاء من فرق مختلفة تبعث بها الشعوب الخاضعة؛ وكانت كل فرقة من هذه الفرق تختلف عن سائر زميلاتها وتحتفظ بلغتها الخاصة وأسلحتها الخاصة وطرقها الحربية الخاصة، ومن أجل ذلك فقد أصبح هذا الجيش المختلط مختلف العدة والعتاد والتنظيم وفقا لاختلاف أصله وتكوينه، فهناك القسي والسهام والسيوف والحراب، وهناك الخناجر والنصال والمجانيق، وهناك المدى والدروع والخوذات وألبسة الحديد.

وهناك الحيل المائجة والأفيال الهائجة، وهناك الرسل والجواسيس والكتاب، وهناك الخصيان والعاهرات والسراري، وهناك العجلات الحربية قد ركبت على دواليها المناجل الفولاذية العريضة القاطعة، وكان عدد هذا الجيش كبير جدا حتى قيل إنه

بلغ في إحدى حملات "اكزرسيس" ١٨٠٠٠٠٠ رجل. ومن أجل ذلك انعدت الوحدة في صفوفه انعداما كاملا بحيث كانت تكفي البادرة الأولى من بوادر الفشل لينقلب هذا الجيش الزاخر إلى جموع هائجة من الغوغاء لا يرعون نظاما ولا يأتمرون بأمر، ولم يكن يساعد هذا الجيش على الغزو إلا كثرة عدده ومقدرته على استيعاب القتلى الذين يسقطون في ميادين القتال، فإذا صدفه جيش حسن التنظيم موحد اللغة والقيادة فلا مفر من أن يلقي على أيديه نهايته العاجلة، كما كان الحال في الوقعتين المعروفتين "ماراتون" و"بلاطيه".

في مثل هذه الأحوال لم يكن "القانون" إلا ما تمليه إرادة الملك وقوة جيشه، وكل حق يقف في وجه هذين العنصرين كان حقا مضيعا مغلوبا على أمره، فأما السابقات والتقاليد التي جرى عليها العمل فلم تكن لتجدي نفعا إلا إذا كان مصدرها أمرا ملكيا خاصا، ومن دواعي الفخر التي تستطيع أن تفخر بها إيران، أن قوانينها لم تتغير على الإطلاق وأن وعود ملوكها وأوامرهم لم يكن يمكن الرجوع عنها بحال من الأحوال، لأنهم كانوا يعتقدون أن الملك ملهم يستمد أحكامه من إله الخير "أهورا مزدا" بحيث أنبنى على تلك الفكرة أن اعتبروا المشيئة الإلهية أساسا لقوانين المملكة،

وان أية مخالفة لها ما هي في الحقيقة إلا أثم في حق الآلهة.

وكان الملك يتولى القضاء في أعلى مراتبه، ولكنه كان في العادة يكل هذه الوظيفة إلى بعض الشيوخ المتفهمين من حاشيته، فكان يتلوه في مرتبته القضائية "محكمة عليا" تتكون من سبعة من القضاة، يتلوها في مرتبتها "المحاكم المحلية" الكثيرة التي تنتشر في أرجاء المملكة، وكان رجال الدين يضعون القوانين اللازمة لهذه المحاكم، وقد ظلوا فترة طويلة يشتغلون بالقضاء وصياغة القوانين وتنفيذ الأحكام، حتى إذا وصلنا إلى العصور المتأخرة وجدنا جماعة من الرجال المدنيين بل ومن النساء المدنيات يجلسون في كراسي القضاء ويصدرون الأحكام.

وكان الإفراج عن المتهم مقبولا في جميع الحالات ما عدا بعض الحالات الخطيرة النادرة، وكانت طرق المحاكمة بعد ذلك تجري على نمط معروف منتظم؛ وكان للمحكمة في بعض الأحوال أن تأمر بمنح المكافآت كما تأمر بتوقيع العقوبات؛ وكان من دأبها عند تقديم أحد المذنبين للمحاكمة أن تقدر ما له من أعمال خيرة وخدمات نافعة سابقة؛ وقد تغلبوا على التعويقات والتأجيلات القضائية بتحديد موعد أقصى لكل قضية من القضايا؛ كما كان من عادتهم أن يقترحوا على المتخاصمين أن يختاروا "محكما" يحكم

بينهم فيما هم فيه من نزاع حتى ينتهي الأمر بينهم صلحا، ثم تعقد القانون وكثرت تقاليده فنشأت بسبب ذلك طبقة من الرجال عرفوا باسم "المتفهمين في القانون" أخذوا على عاتقهم تفسيره للمتخاصمين ومساعدتهم على السير في قضاياهم، وكان من عادة المتخاصمين أن يقسموا على أنهم على حق فيما يتنازعون فيه، كما كانوا في أحيان نادرة يفوضون أمرهم إلى الله أن يظهر معجزته فيأخذ المسيء بجريرته ويثيب المحسن على فعلته، وقد حاربوا الرشوة فجعلوا تقديمها أو قبلوها من أمهات الجرائم التي يعاقب عليها بالإعدام، وساعد "قمبيز" على رفع مكانة المحاكم عندما أمر رجاله أن يسلخوا قاضيا جائرا وهو على قيد الحياة، فلما مات أخذوا جلده فحشوه، وجعلوه مقعدا يجلس عليه ابنه الذي اختاروه ليتولى القضاء في مكانه ..!!!

أما لعقوبات الصغيرة فكانت من قبيل الجلد الذي تتراوح عدد ضرباته ما بين الخمس والمائتين، يضربونها بسوط من سياط الخيل، فإذا سم أحد كلبا من كلاب الرعاة كان نصيبه مائتي جلدة، فإن قتل إنسانا خطأ كان جزاؤه تسعين جلدة، وكانت موارد القضاء تعتمد جزئيا على ما يجيئ من استبدال عقوبة الجلد بالغرامة والاستعاضة عن كل جلدة بست من "الروبيات".

أما الجرائم الكبرى فكان جزاؤها الوسم بالنار أو تمزيق الأوصال أو تقطيع الأعضاء أو سمل الأعين أو الحبس أو الموت، وقد حرم القانون بكافة نصوصه على أي شخص من الأشخاص بما في ذلك الملك أن يأمر بإعدام فرد من الأفراد لجريمة من الجرائم الصغرى، فأما غير ذلك من الجرائم فيمكن صدور الحكم فيها بالإعدام كجريمة الخيانة الوطنية أو هتك العرض أو اللواط أو القتل أو تدنيس النفس أو حرق الموتى أو دفنهم في جوف الأرض أو التهجم على الملك في خلوته أو الاتصال بإحدى محظياته أو الجلوس مصادفة على عرشه أو الإساءة إلى أحد من أمراء البيت المالك، وكانوا يعدمون المحكوم عليه بتجريعه جرعات من السم، أو دق الأوتاد في جسده، أو صلبه على الأعواد، أو شنقه وتعليق رأسه إلى أسفل، أو رجمه بالحجارة، أو دفنه إلى عنقه حيا، أو سحقه بين حجرين عظيمين؛ أو خنقه في رماد ساخن أو قتله بطريقة "الزوارق" التي لا يستطيع العقل الإنساني أن يدرك غلظتها وقسوتها[١]. وقد ورث غزاة الأتراك في عصور متأخرة بعض هذه

(١) يقول "بلوطارخ" أن الجندي "منرداتس" انفلت لسانه أثناء الشراب فأعلن أن الفضل في قتل "قورش الأصغر" في موقعة "كونا كا" إنما يرجع إليه وحده دون الملك، فأمر "ارتاكزرسيس" الثاني بقتله بواسطة "الزوارق" على النحو الآتي: وهو اني اخذوا زورقين متماثلين في البناء والحجم فيضعون هذا المسيء في واحد منها راقدا

العقوبات الوحشية وتركوها بدورهم إرثا للأجيال التي أعقبتهم من بني البشر.

وقد استعان الملك بهذه القوانين التي ذكرناها وبجيشه الذي وصفناه على حكم ولاياته العشرين التي كان يدير شئونها وهو مقيم في واحدة من عواصمه الكثيرة، وكانت "بزارجاده[1]" أهم عواصمه، وكان أحيانا يقيم في "برسبوليس[2]"، وكانت "اكباتانا[3]" مقره في الصيف، كما كانت من عواصمه مدينة "السوس" عاصمة

على ظهره ثم يغطونه بالورق الآخر محكمين الغلق على جسده داخل الزورقين تاركين الرأس واليدين والقدمين خارجهما ثم يقدمون له الطعام فإذا رفضه وخزوا عينيه بالإبر ليضطروه إلى تناوله، فإذا أكله أغرقوه بمزيج من اللبن والعسل يصبونه في فمه وعلى سائر وجهه، ويديرونه صوب الشمس دائما حتى تغطيه اسراب الذباب التي تحط عليه، فإذا أتى في داخل الزورقين بما يجب أن يأتيه كل من يأكل ويشرب، وأخذت هذه الفضلات في التعفن والفساد نشأت من بينها مجموعة من الديدان والهوام تأخذ في الدخول إلى أحشائه حتى تفني جسده، فإذا مات رفعوا الزورق الأعلى فوجدوا لحمه قد نهشته هذه الديدان الكبيرة ذات الطنين العجيب التي تسرع في ذلك الوقت إلى الدخول إلى جوفه وأحشائه، وقد قاسى "مترداتس" هذه الميتة الشنعاء سبعة عشر يوما كاملة حتى هلك.

(١) المترجم: هذه المدينة تعرف في الفارسية باسم "تخت مادر سليمان"

(٢) المترجم: هذه المدينة تعرف في الفارسية باسم "تخت جمشيد"

(٣) المترجم: هذه المدينة هي المعروفة في الكتب الإسلامية باسم "همدان"

العيلمين التي تزخر بالسير الحافلة بتاريخ الشرق الأدنى القديم بكامل حلقاته وسائر مقدماته ونهاياته؛ وكانت تمتاز بصعوبة الوصول إليها، ولكن بعد الشقة بينها وبين سائر البلدان كان يعتبر من ناحية أخرى من جملة نقائصها ومعايبها، وقد اضطرت "الإسكندر" في الأزمنة القديمة إلى أن يقطع ألفين من الأميال ليبلغها ويأخذها، ولكنها أيضا كانت مضطرة كذلك إلى أن تسير جيوشها مسافة ألف ميل وخمسمائة ميل لتخمد الثورات الناشبة في "ليديا" وفي "مصر" وقد ساعدت أمثال هذه الطرق العامة على تمهيد السبيل لليونان والرومان، فتمكنوا من غزو الأنحاء القريبة من آسيا غزوا علميا، ولكن سكان هذه الأنحاء بدورهم تمكنوا من غزو اليونان والرومان من ناحية أخرى غزوا فقهيا روحيا.

وكانت الإمبراطورية مقسمة إلى مقاطعات أو ولايات ليسهل إدارتها وجباية الخراج منها؛ وكان "ملك الملوك" ينيب عنه في وكل ولاية من هذه الولايات أميرا خاضعا لسلطانه أو حاكما يعرف باسم "سترب" يختاره الملك فينصبه حاكما على الولاية مادام حائزا على رضاه، ولكي يضمن "دارا" ولاء هؤلاء الحكام، كان من عادته أن يرسل قائدا إلى كل ولاية من هذه الولايات يجعل إليه وحده دون الحاكم السيطرة على القوات المسلحة فيها؛ كما كان

من دابة، لكي يثق كل الثقة من ولاء هذين الرئيسين، أن ينصب على كل ولاية "دبيرا" من قبله يجعله مستقلا عنهما ويجعل من وظيفته إرسال التقارير إلى الملك عن مسلكهما وأعمالهما، واتخذ الملك بعد ذلك كله إجراء تحفيظا أخيرا، فأنشأ ضربا من قلم المخابرات السرية يعرف رجاله ب "عيون الملك وآذانه"، كان لهم أن يقصدوا في أي وقت من الأوقات إلى أية ولاية يشاؤونها ليفحصوا أمورها وسجلاتها وماليتها، وكان الحاكم يعزل أحيانا دون أن يقدم للمحاكمة، كما كانوا يتخلصون منه أحيانا في هدوء وسكينة بان يدسوا له السم على أيدي الخواص من خدمه بناء على أمر يصدر لهم من الملك، وكان الحاكم والدبير يتبعهما جمع من الكتبة يقومون بأعمال الحكومة العادية التي لا تحتاج إلى شيء من القوة أو العنف.

وكان هؤلاء يتنقلون من إدارة إلى أخرى، ويبقون في مناصبهم حتى ولو تغير الملوك؛ لأن الملك يموت ولكن البيروقراطية خالدة لا يدركها الموت أو الزوال.

ولم يكن الملك هو الذي يدفع رواتب الموظفين المنتشرين في أنحاء ولاياته المختلفة، ولكن كان يقوم على دفعها سكان الولاية التي هم فيها، وكانت هذه الرواتب سخية كل السخاء، يستطيع

الحاكم بفضلها أن يزود نفسه بالقصور الفخمة والنساء الكثيرات وأماكن الصيد الواسعة التي أسماها الفرس منذ أقدم الأزمنة ب"جنات الخلد". وفيما عدا ذلك كان لزاما على كل ولاية أن ترسل إلى الملك سنويا قدرا محدودا من النقود والموال على سبيل الخراج، فكانت الهند ترسل ٤٦٨٠ وزنة[١]، وأشور وبابل ١٠٠٠ وزنة، وإمارات آسيا الصغرى الأربع ١٧٦٠ وزنة .. وهكذا حتى بلغ مجموع ما يجي سنويا من سائر الولايات ١٤٥٦٠ وزنة يقدرون قيمتها حاليا بمبلغ يتراوح بين ١٦٠٠٠٠٠٠٠ – و – ٢١٨٠٠٠٠٠٠ دولار، وكان من الواجب على هذه الولايات بالإضافة إلى ذلك كله أن تمد الملك بما يحتاج إليه من سائر اللوازم والحاجيات، فكانت مصر تمده بقمح يكفي لإطعام ١٢٠٠٠٠ رجل؛ وكان الميديون يمدونه ب ١٠٠٠٠٠ رأس من الغنم، وكان الأرمن يمدونه ب ٣٠٠٠٠ دجاجة؛ وكان البابليون يبعثون إليه بخمسمائة من الفتيان الخصيان، وانضمت إلى ذلك كله مصادر أخرى للثروة أضيفت إلى ما يجي من خراج، فتضخم الدخل العمومي تضخما كبيرا بحيث أن الإسكندر عندما استولى على العواصم الفارسية وجد في الخزائن الملكية ١٨٠٠٠٠ وزنة تبلغ

(١) المترجم: قدروا قيمة الوزنة بما يقرب من ٢٣٥ جنيها، وقالوا أن زنتها تبلغ ستة آلاف درهم.

قيمتها الحالية ٢٧٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار، وهذا القدر الهائل من المال هو الذي بقى بعد مائة وخمسين سنة من الإسراف والترف المعروفين عن الفرس، وبعد مئات من الثورات والحروب التي كلفت الدولة الفارسية ثمنا غاليا، وبعد كل ما حمله "دارا الثالث" معه أثناء هربه مما بلغ على أقل تقدير ثمانية آلاف وزنة.

ومع ذلك فقد ظلت الإمبراطورية الفارسية، رغم تكاليفها الباهظة، أكبر تجربة ناجحة للحكم الإمبراطوري في دائرة البحر الأبيض المتوسط حتى ظهرت بعد ذلك "روما" وورثت كثيرا من أساليبها في السياسة والإدارة، وقد توازنت فيها كفة القسوة والإسراف التي عرف بهما ملوكها المتأخرون وما كان يبدو أحيانا من غلظة في قوانينها وإبهاظ في جباية الخراج فيها، بكفة النظام والأمن اللذين ساعدا الولايات على أن نثري وتنتعش رغم ما ألقي عليها من أعباء وأثقال.

كذلك ظفرت الشعوب الخاضعة لها بمدى واسع من الحرية لا تكاد نصادف مثله إلا في أكثر الإمبراطوريات رقيا وثقافة وعقلية، فقد سمح لكل إقليم أن يستبقى لغته الخاصة وقوانينه وعاداته وأخلاقه وديانته وعملته، بل لقد استطاع في بعض الأحيان أن يحتفظ بالأسرة الحاكمة فيه، وكانت كثرة من الشعوب الخاضعة

للإمبراطورية الفارسية كأهل بابل وفينيقيا وفلسطين راضين كل الرضا بحالهم ويرون أن هذا النظام الإمبراطوري دون غيره هو الذي منع قادتهم وجباه الضرائب من استغلالهم وإرهاقهم.

وقد بلغت الإمبراطورية الفارسية على عهد "دارا الأول" شأوا عظيما جعلها عنوانا للتنظيم السياسي الناجح الذي لم يكن له مثيل في الإمبراطورية الرومانية إلا على عهد أباطرة قليلين مثل "تراجان" و"هادريان" و"أنطونيو".

الفصل الخامس

زردشت

بعثة النبي، الدين الفارسي قبل زردشت، كتاب الفرس المقدس، اهورا مزدا آلهة الخير والشر وكفاحهم للسيطرة على العالم

تحدثنا الأساطير الفارسية أن نبيا عظيما ظهر قبل مولد المسيح بمئات من السنين في "حظيرة الآريين" المعروفة باسم "آيريانا فيجو"، وقد أسماه قومه باسم "زرتشترا" ولكن اليونان اقتصروا على تسميته "زرواستر" لأنهم لم يستطيعوا أن يتحملوا هذا الإملاء الطويل الذي وردت به اللفظة في لغة "البرابرة" من الفرس، وكانت الفكرة التي أوحت به إلهية محضة، جعلت ملاكه الحارس يتسرب إلى نبات اسمه "الهوما" فيختلط بعصارته، وينفذ بعد ذلك إلى جسد رجل من رجال الدين كان يقوم بتقديم الصدقات والقرابين.

فانبعثت أثناء ذلك شعاع من أشعة "العظمة الإلهية" ونفذ إلى صدر فتاة عريقة المحتد كريمة الأرومة تزوج بها رجل الدين هذا، فاقترن بزواجها الملاك الحبيس في صدر الرجل بالشعاع الحبيس في صدر الفتاة، ونتج عن اقترانهما "زرتشترا" وقد أخذ يقهقه عاليا في أول يوم ولد فيه، حتى فرت من حلوه في خوف وذعر تلك الأرواح الشريرة العابثة التي تجتمع عادة حول ولادة حديثة، وقد امتاز هذا المولود بحب عميق للحكمة والحق، فاختار حياة العزلة والاعتكاف واتخذ جبلا موحشا عاش فيه يقتات بالجبن وما تخرج الأرض من ثمر، وقد حاول "الشيطان" أن يغريه ولكنه أخفق في جميع محاولاته، وشق صدره بالسيف وملأ جوفه بالفضة المصهورة

ولكنه لم يتأوه بالشكوى، ولم يتزحزح عن عقيدته في "آهورا مزدا" إله النور وإله الآلهة والإله الأعلى القدير، وظهر له "أهورا مزدا" ووضع في يديه "الأفستا[1]" كتاب المعرفة والحكمة، وأمره أن ينشر التعاليم التي جاءت فيه بين سائر الناس، فلما فعل ذلك ظل فترة طويلة والناس يتهكمون به، ويصيبونه بكثير من السخط والأذى والبلاء، حتى استمع له في النهاية في إعجاب وسرور أمير إيراني كبير اسمه "فشتاسبا"[2] أخذ على عاتقه أن ينشر تعاليمه بين رعاياه.

وبهذه الطريقة ولد الدين "الزردشتي" .. وقد قدر لصاحبه "زرتشترا" أن يعيش حتى يبلغ أرذل العمر، ثم أدركته الوفاة في ومضة من ومضات البرق رفعته إلى مدارج السماء.

ولسنا نستطيع الآن أن نحقق مدى ما ورد في هذه الرواية من صواب، ولكن اليونان على كل حال قبلوا أن يعتبروه شخصية حقيقية تاريخية، وزادوه شرفا بان نسبوه إلى زمن قديم يسبق زمانهم ب ٥٥٠٠ سنة، وقد نسبه "بيروسوس البابلي" إلى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد؛ ولكن المؤرخين المحدثين الذين يعتقدون في صحة

(١) المترجم: يكتب هذا الاسم في الكتب الإسلامية "أوستا" أو "الأبستاق"

(٢) المترجم: يكتب هذا الاسم في الكتب الإسلامية هكذا: "بشتاسب" أو "كشتاسب".

وجوده تاريخيا لا ينسبونه إلا إلى فترة متأخرة عن ذلك، تقع بين القرنين العاشر والسادس قبل الميلاد[1].

وكان الميديون والفرس الأسبقون يعبدون قبل ظهوره الحيوانات والأجداد والأرض والشمس عبادة تصدر عن دين وثيق الصلة (فيما اشتمل عليه من آلهة وتعاليم) بدين "الهندوس" في العصر ال"فيدي". وكان أهم الآلهة في العصر السابق لظهور "زردشت" هو "مثرا" إله الشمس و"أناهيتا" إلهة الخصوبة والأرض و"هاأوما" الثور المقدس الذي أشفى على الموت ثم انبعث حيا وسقى البشر دماؤه ليكسبهم البقاء والخلود؛ وقد ظل الإيرانيون السابقون يعبدونه، ويتناولون من أجله عصيرا مسكرا يستخرجونه من عشب "الهوما" الذي يكثر على سفوح الجبال في بلادهم، وقد استاء "زردشت" أشد الاستياء عندما وجد قومه يعتقدون في هذه الآلهة البدائية وهذه المراسم الخرافية، فثار ضد "المجوس" أو الكهنة الذين كانوا يقومون بالصلاة لها وتقديم القرابين إليها، وأعلن للعالم في شجاعة منقطعة النظير أنه لا يوجد إلا إله واحد هو "آهورا مزدا" إله "النور والسماء" وأن ما عداه من آلهة ما هي في الحقيقة

(١) إذا صح أن "فشتاسبا" الذي قام بنشر تعاليم "زردشت" هو والد "دارا الأول" فإن أقرب التواريخ احتمالا هو التاريخ الأخير على ما يظهر.

إلا مظاهر من صفاته، وربما أحس "دارا الأول" عندما اعتنق هذا الدين أنه دين قمين بان يوحي بعناصر الخير في نفوس شعبه، وببذور القسوة في شعاب حكومته؛ فأخذ على عاتقه منذ تولي العرش أن يحارب المذاهب القديمة الأخرى وكهنة المجوس الأقدمين وأن يجعل "الزردشتية" وحدها المذهب الرسمي للدولة.

والكتاب المقدس الذي جاء به هذا الدين الجديد هو في الحقيقة عبارة عن مجموعة من الكتب استوعبت ما جمعه تلاميذ هذا النبي من أقوال وصلوات؛ وقد أسماها بعض اتباعه المتأخرين "الافستا" واشتبه الأمر على بعض العلماء المحققين فسموها خطأ بال "زندافستا" وأصبحت لذلك تعرف لدى الغربيين بهذه التسمية الخاطئة[1]. وقارئ هذه الكتب من غير الفرس، يروعه أن يجد أن الأجزاء الأساسية التي بقيت منها (وهي في مجموعها أقل مما جاء في الإنجيل) هي في الحقيقة جزء صغير جدا بالقياس إلى ما

(١) "أنكيتيل ديبرون" المتوفي سنة ١٧٧١، هو المستشرق الذي أضاف كلمة "زند" وهذه الكلمة يستعملها الفرس للدلالة على ترجمة ال "أفستا" أو تفسيرها وشرحها، أما كلمة "الأفستا" فكلمة مجهولة الأصل وربما كانت مشتقة مثل كلمة "فيدا" من الأصل الأري "فيد" بمعنى يعرف .!

أنزله الله على "زردشت"[1] ويبدو لمن يمعن النظر فيها، سواء من

(١) تروي الأخبار الفارسية أن "الافستا" تحتوي على واحد وعشرين كتابا كل منها اسمه "نسك" وهذه الكتب جميعها لا تشتمل إلا على جزء قليل من نصوصها الأصلية وقد بقى كتاب منها برمته هو ال "ونديداد" أما الكتب الأخرى فتوجد منها أجزاء مشتتة توجد في ثنايا تأليفات متأخرة كال "دينكرت" وال "بندهش" ويذكر مؤرخو العرب أن ال "اقستا" برمتها كانت مكتوبة في ١٢٠٠٠ دقيقة من جلود البقر.

ومن الروايات الدينية الذائعة أن الأمير "فشتاسب" أمر بنسخ "الافستا" في نسختين، أحرق الإسكندر أحداهما عندما أحرق القصر الملكي في "برسبوليس" وأما النسخة الأخرى فحملها اليونانيون المتصرون إلى بلادهم ثم ترجموها واستمدوا منها – كما يقول الفرس – كل ما أثر عن اليونان من علم ومعرفة، كلما كان القرن الثالث الميلادي أمر ملك من ملوك البارثيين ومن الأسرة الاشكانية اسمه "ارافولو جيسوس" أن يجمعوا المقطوعات المتفرقة من "الافستا" سواء كانت مدونة أو متناقلة بين أتباع هذا الدين، فأصبحت هذه المجموعة عبارة عن الكتاب المقدس للزردشتيين في القرن الرابع الميلادي وقام عليها الدين الرسمي للدولة الفارسية، وقد أصيبت هذه المجموعة بشيء من الأذى فيما بعد، عندما غزا المسلمون فارس في القرن السابع الهجري.

والأجزاء الباقية من ال "أفستا" يمكن تقسيمها إلى خمسة أقسام:

الأول – ال "يسنا" وهو عبارة عن خمسة وأربعين فصلا من الطقوس الدينية يرتلها كهنة الزردشتين، وسبعة وعشرين أخرى تسمى ال "كاتها" صياغتها موزونة فيما يظهر وتشتمل على أحاديث "زردشت" وما انزل إليه.

الثاني – ال "ويسيرد" وهو عبارة عن أربعة وعشرين فصلا من الطقوس الدينية

الأجانب أو من الفرس، أن هذه الأجزاء الباقية هي في الحقيقة عبارة عن مجموعة مضطربة من الأدعية والصلوات والأغاني والأساطير والوصفات والمراسم وقواعد الأخلاق، ليس فيها أي جمال فني إلا ما يعترضها أحيانا من ألفاظ مختارة أو ما يبدو في صياغتها من تحمس في الإخلاص أو ترفع في الآداب أو تعفف في الترتيل والإنشاد، وهي في مجموعها شبيهة بالتوراة من حيث كونها مجموعة من التواليف الدينية الممتازة، إذا سلكها الباحث تكشفت له أسماء الآلهة ودلالات الأفكار موزعة في أنحائها المختلفة، ولقد يعثر أحيانا على نفس الكلمات والتعبيرات المستعملة في ال "رج – فيدا" حتى لقد ذهب بعض المشتغلين بالعلوم الهندية إلى أن ال "أفستا" لم تصدر في الواقع عن "آهوار مزدا" إنما نزلت بها كتب الهنود المقدسة المعروفة بال "فيدا". وربما صادف القارئ أحيانا

الثالث – ال "ونديداد" وهو عبارة عن اثنين وعشرين فصلا يعرف كل منها بال "فرجرد" وهي تستوعب فقه الزردشتيين وتشريعاتهم الأخلاقية ويتخذها "البارسبول" في الهند أصلا لقانونهم الكنسي في الوقت الحاضر.

الرابع – ال "يشت" وهي مجموعة من الأغاني والمدائح الموجهة للملائكة، وهي تبلغ اثنتين وعشرين أغنية، تختلط فيها الأساطير بنبوءة عن نهاية العالم.

الخامس – ال "خرد أفستا" أو ال "افستا الصغيرة" وهي مجموعة من الصلوات لمختلف المناسبات.

مقطوعات مشتقة من أصل بابلي قديم ثم الحيوان ثم الإنسان، وكنشأة البشر من أبوين اثنين، وكتصوير الجنة بصورة أرضية، وكغضب الخالق على خليقته وتصميمه على إهلاكهم جميعا بالطوفان فيما عدا فئة قليلة استثناها من مخلوقاته.

ومع ذلك كله، فالعناصر الإيرانية الأصيلة الباقية في هذه الكتب تكفي للدلالة على طابعها العام، فالعالم فيها تسوده فكرة الثنائية، وهو مسرح لنزاع دائم يستمر اثنتي عشرة ألف سنة، هي فترة النزاع بين "آهورا مزدا" إله الخير و"أهر من" إله الشر؛ ولكن الطهر والمانة، وهما أكبر الفضائل ينتهيان بالعالم إلى الأبدية والخلود؛ فأما الموتى فلا يجب دفنهم أو حرقهم كما يفعل السفهاء من اليونان والهنود؛ بل يجب أن تطرح جثتهم للكلاب لتنهشها أو للطيور لتقتات بها.

وإله "زردشت" عبارة عن مجموعة السموات والأفلاك، و"آهورا مزدا" في رأيه يكتسي بقبة السماء الزرقاء، وجسده هو النور والعظمة الملكية، والشمس والقمر هما عيناه وناظراه، فلما تقدمت العصور وانتقلت أمور الدين من أيدي الرسل والأنبياء إلى أيدي القادة والساسة، صوروا هذا الإله بصورة ملك جبار مهيب الجانب، قوي السلطان، يعينه على الخليقة والحكم مجموعة من

الآلهة الصغيرة جعلوها في البداية صورا من صور الطبيعة وقواها كالنار والماء والشمس والقمر والرياح والمطر، ومع ذلك فقد ظل أكبر فخر ل "زردشت" أنه صور إلهه بصورة الإله المسيطر على ما عداه من الكائنات، فجاءت في كتابه عبارات جميلة لا تقل في روعتها وشدة أسرها عما جاء في كتاب "يعقوب"، فهو يقول:

"ها أنا ذا أسألك فحدثني بصحة الخبر .. يا آهورا مزدا ..!! من الذي"

"جعل الشمس والكواكب مستقرا تسري فيه ..؟ ومن الذي جعل القمر يكبر"

"ويصغر ..؟ ومن الذي يحمل الأرض والسموات من أسفلها فلا يدعها تنهار"

"وتهوى ..؟ ومن الذي يقوم بالمحافظة على المياه والنبات ..؟ ومن الذي"

"سخر الرياح الذارية والسحب السارية.؟ ومن الذي أبدع يا آهورا مزدا .."

"العقل الخير ..؟؟"

وهم لا يقصدون بالعقل الخير العقل الإنساني، وإنما يقصدون

به "الحكمة الإلهية" التي جعلها "آهورا مزدا" واسطة في إبداع الخليقة[1]. وقد وصف "زردشت" إلهه "آهورا مزدا" فألحق به سبع صفات هي:

"النور" و"العقل الخير" و"الحق" و"الجبروت" و"القداسة" و"الإحسان" و"الخلود".

ولكن أتباعه – وقد اعتادوا من قبل عبادة الآلهة المتعددين – مثلوا هذه الصفات في صور كائنات أسموها "أميشا سبنتا" أي الكائنات الخالدة المقدسة، وجعلوها تأتمر بأمر "آهورا مزدا" فتخلق العالم وتسيطر على تنظيمه وحكمه؛ وبذلك تحول مذهب التوحيد الذي جاء به مؤسس هذا الدين إلى فكرة التعدد التي اعتنقها أتباعه، وهذا شبيه بما حدث للمسيحية أيضا.

وأضاف الفقه الفارسي إلى هذه المجموعة من الكائنات مجموعة أخرى من "الملائكة الحارسين" يتولون رعاية كل رجل وامرأة وطفل؛ ويعتقد الفارسي المتدين، متأثرا في ذلك بما جاء في ديانة البابليين عن الشياطين، بأنه في مقابل هذه الكائنات المقدسة

---

(١) يعتقد "دار مستتر" أن فكرة "العقل الخير" شبيهة بما اعتقد "الأدريين" و"فيلو" عن فكرة "الكلمة الإلهية" وهو يتخذ ذلك حجة على أن ال"يسنا" يرجع تاريخها إلى القرن الأول قبل الميلاد.

والملائكة الأطهار الذين يعينونه على الخير، يوجد سبعة من الشياطين أو الأرواح الشريرة، تديم التحليق في الهواء وتسعى جاهدة إلى إغراء البشر بارتكاب الآثام والشرور؛ ومن أجل ذلك فهي في حرب دائمة مع "آهورا مزدا" وكل مظهر من مظاهر الحق والخير، ورئيس هؤلاء الشياطين هو "آنجرو ماينيوس" أو "اهرمن" أمير الظلمة وحاكم العالم السفلي، وهو شبيه بإبليس في ديانة اليهود، وقد أخذوا فكرته فيما يظهر من فارس ثم أهدوها بدورهم إلى المسيحية، و"أهرمن" هو الذي خلق الثعابين والديدان والجراد والنمل والشتاء والظلمة والمعاصي والآثام واللواط والطمث وما شابه ذلك من بلايا الحياة وآفاتها، وقد أبدعها جميعا لتكون سببا في تحطيم الجنة التي أسكنها "آهورا مزدا" للسلف الأول من الجنس البشري.

ويبدو لي أن "زردشت" كان يعتبر هذه الأرواح الشريرة آلهة زائفة، هي في الحقيقة تجسيد خرافي للقوى المعنوية التي تقف في سبيل تقدم الإنسان ورقيه، فأما أتباعه فقد اتبعوا طريقا أيسر في التفكير فظنوها كائنات حية، جسدوها في كثرة بالغة بحيث اشتمل علم اللاهوت الفارسي فيما بعد على ملايين من هذه الشياطين الشريرة.

والمذهب الذي جاء به "زردشت" قريب المشابهة جدا بمذهب التوحيد؛ وقد أدخلوا عليه فكرة "أهرمن" و"الأرواح الشريرة" ولكنه ظل مذهبا لا يعترف إلا بإله واحد، كما يفترض في المسيحية رغم اشتمالها أيضا على فكرة إبليس والملائكة والشياطين، وفي الواقع إننا نجد في المسيحية الأولى أصداء كثيرة لفكرة الثنائية الفارسية والتعاليم الدينية اليهودية والفلسفة اليونانية، وفي الواقع أيضا أن فكرة "الله" عند الزردشتيين قد استطاعت أن تعجب رجلا مثل "ماتيو آرنولد" ... لأن "آهورا مزدا" كما يبدو فيها، هو مجموعة القوى التي تعمل للخير والحق في هذا العالم؛ وفي الاستعانة بهذه القوى ظفر مؤكد لنشر الفضيلة والأخلاق؛ كما أن في فكرة "الثنائية" تبرير لهذا التعارض الذي يجعل الأشياء على طرفي نقيض، وهو ما لم تستطيع "فكرة التوحيد" أن تلتمس له مخرجا على الإطلاق. ولقد يذهب بعض رجال الدين الزردشتيين أحيانا مذهب متصوفة الهنود أو فلاسفة القرون الوسطى فيرون أن الشر لا وجود له في الواقع ونفس الأمر؛ ولكن هذا لا يمنع من أن علم اللاهوت الذي قدموه لأتباعهم جاء مناسبا تمام المناسبة لتمثيل وقائع الحياة ومعانيها تمثيلا يقبله العقل البشري العادي؛ وقد جعلوا الفصل الأخير من هذه الرواية عهدا قطعوه على أنفسهم بان نهاية الرجل الخير ستكون خيرة سعيدة، فإذا انتهت أربع

فترات كل منها ثلاثة آلاف سنة، وتناوب الغلبة فيها "آهورا مزدا" و"أهرمن" فإن النهاية ستكون بسحق الشر واستئصاله، ونصرة الخير وإعلائه، واختفاء القوى الشريرة إلى يوم الدين وأبد الآبدين، وعند ذلك يتمكن الرجال الخيرون من اللحاق ب "آهورا مزدا" في جنة الخلد، فأما أهل الشر والسوء فيسقطون في فجوة عميقة من الظلام، يكون طعامهم فيها السم الزعاف على الدوام.

الفصل السادس

فلسفة الأخلاق لدى الزردشتيين

الإنسان هو ميدان المعركة، النار التي لا تخمد، الجحيم والأعراف والجنة، عبادة "مترا"، المجوس والبارسيون

صور الزرادشة عالمنا الذي نعيش فيه بأنه مسرح للكفاح بين الخير والشر، فأقاموا بذلك في خيال الشعب قوة خارقة تحض على الأخلاق والعفة والطهر؛ وجعلوا النفس البشرية شبيهة بالكون، فمثلوها بميدان تتعارك فيه الأرواح الخيرة والأرواح الشريرة، وبذلك أضحى لكل إنسان – سواء شاء أو لم يشأ – جنديا من جنود الرحمن الرحيم أو جنديا من جنود الشيطان الرجيم، وأضحى كل عمل إيجابي أو سلبي يصدر عنه يعتبر مما يرجح كفة إله الخير "آهورا مزدا" أو كفة إله الشر "أهرمن" .. وهذا المبدأ الأخلاقي، الذي جعل حتما على البشر أن يستعينوا في تقرير أخلاقهم بمجموعة من القوى الخارقة للعادة، هو في الحقيقة مبدأ يدعو إلى الإعجاب الشديد الذي يفوق حد الإعجاب بالفقه الذي أملاه؛ فقد أضفى على الحياة البشرية العادية رداء من الروعة والجلال يفوق في بهجته وشدة أسره كل رداء يجوز أن يكون نتاجا للفكرة السائدة التي تجعل من الإنسان "حشرة حقيرة" كما كانوا يصفونه في القرون الوسطى، أو إله ميكانيكية تتحرك من تلقاء نفسها كما يعبرون عنه اليوم في الاصطلاح الحديث، فلم يكن البشر في رأي "زردشت" مجرد بيادق تتزاحم عفوا في رقعة الكون وحربه الدائرة، بل هم في الحقيقة كائنات حرة الإرادة، لأن "آهورا مزدا" شاء أن ينمي

شخصياتهم، فجعل لهم أن يختاروا في حرية تامة بين النور والحق وبين الظلام والكذب، وهداهم إلى أن "أهرمن" هو "الكذب الخالد" وكل كاذب يعتبر واحدا من أتباعه وخدامه.

وقد نتج عن هذه الفكرة العامة مجموعة مفصلة من القواعد الأخلاقية بسيطة للغاية، لأنها تدور حول القاعدة الذهبية التي تقول: "أن الطبيعة الخيرة هي تلك التي تملي على صاحبها ألا يصنع بغيره أمرا لا يريده لنفسه(١)" وتقول ال "أفستا" أن واجب الإنسان ينطوي على ثلاثة أمور هي "أن يسعى إلى جعل العدو صديقا، وجعل الشرير صالحا، وجعل الجاهل عالما" فأما أكبر الفضائل فالصلاح، ثم الشرف والأمانة في الأقوال والأمانة في الأقوال والأفعال، وتطبيقا لهذا المبدأ الأخير، لم يكن الفرس مثلا يتقاضون شيئا من الفائدة على عاريات الأموال ولكنهم كانوا ينظرون إليها نظرهم إلى الشيء المقدس الذي لا يجوز المساس به أو التصرف فيه، والكفر عندهم هو أكبر الآثام في الديانة "الأقستية" كما هو الحال في الديانة "الموسوية"؛ ولقد نستطيع أن نستدل على وجود "الإلحاد" بين الفرس من هذه العقوبات

(١) ينص الفصل ٦ من ال"يسنا" على أن "الشرير هو الذي يحسن إلى الأشرار" ومن الملاحظ أن الكتب الموحى بها قلما تتفق في نصوصها وتعابيرها.

الشديدة التي اختصوه بها؛ فكان جزاء المارق والكافر الإعدام السريع، لأن المغفرة والرحمة التي أمر بها الرحمن لم تكونا من نصيب "الكفرة" والمارقين، وقد وردت كلمة "الكفرة" في بعض النصوص مرادفة لكلمة "الأجانب" وعرفوا "الأجنبي" بأنه نوع منحط من الفصيلة البشرية، لم يهده "آهورا مزدا" إلى اتباع الخير، بل ملأ قلبه بحب وطنه، فلم يعد يفكر إلا فيه وسعى دائما إلى غزو فارس، ويقول هيرودوت: "إن الفرس يرون أنفسهم أسمى الشعوب شأنا وأعلاها كعبا في سائر المور والشئون، وهم يعتقدون اعتقادا جازما أن الأمم الأخرى تدنو منهم فضلا، باعتبار موقعها الجغرافي قربا أو بعدا من "فارس"، وإن أسوأ الأمم والشعوب هي أبعدها عن الحدود الفارسية، وقد بقيت أصداء هذه الأقوال حتى اليوم ومازالوا يطبقونها تطبيقا عاما شاملا.

ولما كان الصلاح هـ و أكبر الفضائل وأسماها عند الفرس، فإن أول واجب على الإنسان في الحياة هو التقرب إلى الله وعبادته بطريق التطهر والتضحية والصلاة، ولم تجز الديانة الزردشتية إقامة الهياكل والأصنام، ولكن اتباعها مع ذلك أخذوا يقيمون معابدهم المقدسة على سفوح التلال أو في ساحات القصور أو في أواسط المدن، واشعلوا فيها النيران المقدسة قربانا للإله "أهورا مزدا" أو

لغيره من الآلهة الصغيرة، ثم عبدوا هذه النيران نفسها واعتبروها من آلهتهم وأسموها "آتر" وجعلوها ابنا لإلهم الأعظم إله النور والضياء، وأصبح من عادة كل أسرة أن تجمع حول موقد النار في خشوع واحترام، ثم تطور الأمر فأصبح من اهم مراسم الدين أن يحرص أعضاء الأسرة الواحدة على إبقاء هذه النار في اشتعال دائم، وألا يدعوها تخمد في لحظة من اللحظات، فأما نار السموات التي لا تخبو وهي "الشمس" فقد عبدوها على أنها أبلغ تمثيل وأقوى تجسيد لفكرة "آهورا مزدا" أو "مترا" وهذا شبيه بما فعله "أخناتون" تماما من حيث عبادة الشمس في مصر، ويقول كتاب الفرس المقدس: "إن شمس الصباح يجب أن تبجل حتى وقت الظهيرة، وشمس الظهيرة يجب أن تبجل حتى وقت العصر؛ وشمس العصر حتى وقت المساء، فإذا لم يبجل الناس الشمس فإن الأعمال الخيرة التي يأتونها طيلة النهار لا تحسب في حساب حسناتهم" ... وكانوا يقدمون للشمس والنار و"آهورا مزدا" قرابين من الزهر أو الخبز أو الفاكهة أو الطيب أو الثيران أو الأغنام أو الإبل أو الخيل أو الحمير أو الغزلان؛ كما كانوا يقدمون أحيانا قرابين من البشر، وهذا كله شبيه بما كان عليه الحال في أجزاء أخرى من الأرض. وكانوا يعتقدون أن الآلهة تتلقى خلاصة هذه الأشياء دون سائر أجزائها المأكولة، فإن هذه الأجزاء المادية كانت

من نصيب الكهنة والمتعبدين وحدهم، وقد عبر كاهن المجوس عن ذلك بقوله: إن الآلهة لا تريد من الأضحية إلا الروح التي اشتملت عليها.

أما العادة الآرية القديمة التي جروا فيها على تقديم شراب ال"هوما" المسكر إلى الآلهة فقد ظلت متبعة في الديانة الزردشتية، ولو أن "زردشت" نفسه كان يكرهها كرها شديدا، بحيث لم يرد لها ذكر على الإطلاق في نصوص كتابه ال"أفستا" وكان على الكاهن أن يشرب جزءا معلوما من هذا العصير المقدس وأن يقسم الباقي على الحاضرين من المؤمنين أثناء تأدية الطقوس الدينية، فإذا كان الناس من الفقر بحيث لا يستطيعون تقديم مثل هذه القرابين الشهية الغالية فلا بأس عليهم من أن يتقربوا إلى إلههم بالزلفى والإغراق في الضراعة والابتهال، والظاهر أن "آهورا مزدا" كان شبيها بإله اليهود يحب المدائح ويستسيغ الأدعية، ومن أجل ذلك فقد كشف للصالحين عن قائمة مستفيضة من صفاته؛ أصبحت وردا على ألسنة الفرس في دعواتهم وابتهالاتهم.

فإذا قدرت للفارسي حياة الحق والصلاح فله أن يقابل الموت غير خائف ولا وجل، وقد كان هذا المطلب من أهم الأهداف الخافية التي يهدف إليها الدين، وكان في وسع إله الموت

"استيفيهاد" أن يظفر بكل إنسان مهما كان مقره ومكانه، لنه باحث دائب ليس له غالب، ولا يستطيع كائن أن يفلت من قبضته ومخالبه، وقديما لم يستطع أن ينجو منه من لاذ بالهرب إلى أسفل سافلين، كما فعل "أفراسياب" التركي حينما استغل السحر والقوة فبنى لنفسه قصرا من حديد تحت سطح الأرض على عمق ألف قامة من قامات الرجال، ودعمه بمئات الأعمدة الهائلة، وأنشأ في سقفه النجوم والكواكب، وأدار فيه القمر والشمس، وملأه بأشعة النهار البينة الساطعة، ونال فيه من المتع ما شاء، وعاش فيه عيشة كلها سعادة وهناء ..!!

ولم يستطع أن ينجو منه من جاب مسالك الأرض الفسيحة الواسعة وبلغ حدودها النائية الشاسعة، كما فعل "الضحاك" حينما خرج من المشارق إلى المغارب باحثا عن الخلود، فلم يظفر ولم يفز بنجح.

و"أستيفيهاد" يقبل على كل شخص من الناس في خداع وخفاء، فلا يقبل منهم ثناء ولا طراء، ولا يقبل منهم رشوة ولا عطاء، وكل همه أن يهلك الناس في قسوة وجفاء، دون أن يرعى لأحد منهم حرمه ولا ولاء ..!!

والمعروف عن كل الأديان أنها بطبيعتها تشتمل على جملة من

مبادئ الوعيد والإرهاب، تقابلها جملة أخرى من مبادئ البر والمواساة؛ وعلى ذلك فلم يكن الفارسي العادي يقابل الموت غير آبه إلا إذا أحس بأنه كان من جنود "آهورا مزدا" المخلصين، لأنه كان يعتقد أن العالم الخافي تقع فيه "النار" و"الأعراف" و"الجنة" وعلى أرواح الموتى أن تعبر جميعها فوق جسر كالغربال هو الصراط المستقيم، فأما الروح الخيرة فمصيرها إلى مسكن الأغاني والأهازيج، حيث تستقبلها فتاة عذراء ذات وجه كله فتنة وحياء، وصدر ناهد الثدي مكتمل النماء، ثم يعيش بعد ذلك مع "آهورا مزدا" حتى أبد الآبدين في هناء دائم وصفاء مقيم، وأما الروح الشريرة فلا تستطيع أن تعبر هذا الجسر بل تتردى في هوة سحيقة من النار، يتناسب عمقها مع مدى الخبث والإثم اللذين اتصفت بهما هذه الروح، وهذه النار لم تكن مجرد "الجحيم" الذي حدثتنا عنه الأديان الأخرى عندما قالت إن جميع الأرواح تهبط إليه في البداية سواء أكانت خيرة أم شريرة، بل هي هوة سحيقة من الظلام والرعب، تتردى فيها الأرواح الشريرة لتنال ما قدر عليها من عذاب إلى نهاية العالم.

فإذا كانت حسنات الإنسان ترجح سيئاته فعليه أن يتطهر بعقوبة مؤقتة، فإذا كثرت آثامه وكانت له حسنات فإن عذابه لا

يستمر إلا اثنتي عشرة ألف سنة، يرفع بعدها إلى الجنة الموعودة لعبادة الصالحين ..!! ويحدثنا صلحاء الزرادشة بأن الزمان قد قرب من نهايته المحتومة، فقد حدثت ولادة "زردشت" في فترة الثلاثة آلاف سنة الأخيرة من حياة هذا العالم، فإذا ظهر من نسله ثلاثة أنبياء، ينشرون دينه في فترات متباينة، فغن القيامة تقوم ويسود حكم "آهورا مزدا" ويتحطم "أهرمن" وأتباعه تحطيما كاملا لا تقوم لهم من بعده قائمة، فتدرب الحياة من جديد في الأرواح الخيرة وتنبعث من جديد بعثها الأخير، ويخلو العالم إلى أبد الآبدين من أعراض الشيخوخة والهزال والموت والانحلال.

وفي هذا كله مثل آخر لما نصادفه في "كتاب الموتى" عن التهديد بيوم القيامة الرهيب، وربما انتقلت فكرة البعث هذه من الفارسية إلى اليهودية في أيام سيطرة الفرس على فلسطين، وهي فكرة رائعة ... لجأوا إليها لتخويف الأطفال حتى يدينوا بالطاعة لآبائهم، وليس من شك في أن من أهم الأغراض التي يقوم الدين على تأديتها تمهيد الواجب العسير الشاق الذي يلزم الكبار بتأديب الصغار وتقويمهم، ومن أجل هذا وجب أن نعترف بفضل موابذة الزردشتيين ومهارتهم في اصطناع هذه الأسس الدينية الفائقة التي جعلت دينهم دينا رائعا يمتاز عن سائر الأديان المنتشرة

في ذلك الزمان بعدم دعوته إلى المحاربة وسفك الدماء والخصام، وبنفوره الشديد من عبادة الدمى والأصنام، وببعده عن الاعتقاد في الخرافات والأوهام، بحيث حق له أن يبقى سليما لا يتطرق إليه الزوال السريع.

ومن المعروف أن هذا الدين استطاع تحت حكم "دارا الأول" أن يصبح المصدر الروحي للأمة الفارسية في أوج رفعتها؛ ومن المعروف أيضا أن الإنسانية تحب الشعر أكثر مما تحب المنطق، وأن الناس لا يطيقون الحياة دون أن يصوغوا لأنفسهم أسطورة يبدعها الوهم والخيال، فنتج عن ذلك كله أن ظل جماعة من الناس يخلصون العبادة ل "مترا" إله الشمس و"أناهيتا" إلهة النماء والخصوبة والتوالد والأنوثة، بالإضافة إلى إخلاصهم لهذا الدين الرسمي الذي دعا إلى عبادة "آهورا مزدا" وقد أخذ أسما "مترا" و"أناهيتا" يذكران في النقوش الملكية في أيام "ارتاكزرسيس الثاني" وانتشرت منذ ذلك الوقت عبادة "مترا" بصورة قوية، وأخذت عبادة "آهورا مزدا" تخبو وتتضاءل حتى إذا كانت القرون الميلادية الأولى، أخذت عبادة "مترا" تنتشر في أرجاء الدولة الرومانية، فمثلوه بشاب مقدس، رائع الصورة بهي الجمال، تحوط رأسه هالة من الضوء، رمزا لتمثل شخصيته بالشمس منذ أقدم الأزمنة؛ وقد

ساعد هذا التصوير في نشأة الاحتفال بيوم الميلاد لدى المسيحيين[١]. ولو كان "زرتشترا" مخلدا ولم يصبه الفناء لأحس بالفضيحة والعار عندما اخذ الفرس بعد موته بقرون قليلة يقيمون في كثير من مدنهم جملة من التماثيل ل"أناهيتا[٢]" ولساءه على وجه التأكيد أن يجد كثيرا من صفحات كتابه المقدس قد اقتصرت على إيراد أنواع شتى من الصيغ السحرية التي يراد بها شفاء الأمراض أو الرجم بالغيب أو الشعوذة، ومع ذلك فقد استطاع الأقدمون من كهنة المجوس – أو "الرجال العقلاء" كما يسمون – أن يقهروا هذا المذهب، بان فعلوا به ما يفعله عادة رجال الدين، إذا شاءوا التغلب في النهاية على كل ثائر قوي أو ملحد عنيد، فأدخلوا مذهب "مثرا" في معتقداتهم، وسلكوا "مثرا" في عداد آلهتهم، ثم أسدلوا عليه بعد ذلك ستارا كثيفا من الإهمال والنسيان.

وقد عرف عن كهنة المجوس أنهم استطاعوا أن يؤثروا في قومهم

---

(١) كان يوم الميلاد في الأصل عيدا شمسيا يحتفلون فيه لدى الانقلاب الشتائي (أي قرب الثاني والعشرين من ديسمبر) بطول النهار وتغلب الشمس على أعدائها، وقد انقلب هذا العيد الشمسي إلى عيد يحتفل به أتباع "مثرا" ثم أصبح في النهاية يوما مقدسا لدى المسيحيون.

(٢) هي لدى الفرس بمثابة "أفروديت" لدى اليونان وتسمى بالعربية "الزهرة"

تأثيرا كبيرا لا حد له، وانهم فازوا كذلك عند اليونانيين بشهرة عريضة في الحكمة والعلم وبما كانوا يأخذون به حياتهم من الخشونة والاقتصار على زوجة واحدة، وبما كانوا يتبعونه في التطهر من مختلف المراسم والطقوس الدينية، وبما كانوا يراعونه من الامتناع عن أكل اللحوم والاقتصار في ملبسهم على كل بسيط خشن، وقد نتج عن ذلك كله أن تتلمذ لهم ملوك الفرس وأصبحوا لا يقدمون على عمل خطير دون أن يستشيرهم ويعملوا برأيهم، فأما المبرزون من هؤلاء الكهنة فكانوا "حكماء" بمعنى الكلمة، وأما العاديون منهم فكانوا عرافين أو مشعوذين، يقتصر عملهم على الحدس بأحكام النجوم وتفسير الرؤى والأحلام.

وتتابعت السنون بعد ذلك فأخذت العناصر الزردشتية في الدين الفارسي تضمحل وتخبو، ثم أصابتها نوبة من نوبات الانتعاش تحت حكم "الدولة الساسانية" من ٢٦٦ – ٦٥١ م ولكنها ما لبثت أن استؤصلت نهائيا بالفتح الإسلامي لإيران، ثم بغارة التتار عليها فيما بعد، ولم يعد للديانة الزردشتية بقاء في أيامنا هذه إلا بين جماعات صغيرة من معتنقيها في ولاية "فارس" يضاف إليهم تسعون ألفا من "البارسين" في بلاد الهند؛ وهؤلاء جميعا يدرسون في دقة وعناية كتبهم القديمة، ويقدسون النار والأرض

والماء والهواء، وينشرون موتاهم فوق "بروج الصمت" لتأكلها الجوارح الكبيرة والكواسر حتى لا تتلوث بها العناصر المقدسة إذا ما أحرقوها أو دفنوها في بطن الأرض، وهم أناس يمتازون بأخلاق قويمة وصفات سليمة، جعلتهم الشاهد الماثل لأعيننا حتى اليوم على أن مذهب "زردشت" يشتمل على كثير من العناصر القوية التي تعمل على تمدن الجنس البشري وإسعاده.

الفصل السابع

آداب الفرس وأخلاقهم

القوة والشرف، مراسم التطهر والنظافة، آثام الجسد، العذارى والعزاب، الزواج والنساء والأطفال، أفكار الفرس في التعليم والتربية.

أما ما بقى في طباع الميديين والفرس من غلظة وقسوة لم توح بهما تعاليم دينهم التي رأيناها، فقد أصبح مثارا للدهشة والحيرة... فقد سجل "دارا الأول" وهو أكبر ملوكهم إطلاقا في نقش من النقوش المسطورة في حجر "بهستون" العبارات التالية التي تدل على كثير من القسوة والجفاء:

"لقد قبضوا على "فراورتش" وأحضروه إلى فأمرت بقطع أنفه وأذنيه، ثم قطعت لسانه وسمات عينيه، ثم أبقيته في قصري مقيدا بالسلاسل والأغلال، فلما رآه جميع الناس على هذه الحال، أمرت بصلبه في مدينة "اكباتانا" وقد أيدني "آهورا مزدا" بعضده المتين، فاستطعت برعايته أن أقهر جيوش الثائرين .. وتمكن رجالي من القبض على سترنكاخارا، فلما أحضروه أمامي قطعت أنفه وأذنيه وسملت عينيه، وأبقيته في قصري مصفد بالأغلال، فلما فرغ جميع الناس من مشاهدته على هذه الحال، أمرت بصلبه، والقضاء عليه ..!!"

وتشهد حوادث القتل التي ذكرها لنا "بلوتارك" في حياته عن "ارتاكزرسيس" الثاني، على أن الملوك المتأخرين كانوا يتصفون بكثير من القسوة وسفك الدماء، وإنهم كانوا يبطشون بالخونة بطشا لا رحمة فيه ولا شفقة، فإذا اتهم القادة والزعماء بالخيانة،

كان نصيبهم القتل والصلب، وبيع أتباعهم بيع الرقيق، واستبيحت مدنهم للغارة والسلب، وفتيانهم للقتل والخصي، وفتياتهم للمتعة والسبي.

ومن الحق أن نقرر في هذه المناسبة، انه ليس من العدل في شيء أن نحكم على شعب بما ورد في سيرة ملوكه وحكامه، فالفضيلة لا وجود لها في صحائف الأنباء والأخبار، وفضلا الرجال شبيهون بالأمم الفاضلة لا ذكر لهم ولا تاريخ، ولكننا مع ذلك كله نجد جملة من ملوك الفرس أظهروا في مناسبات قليلة أمثلة رائعة من امثله السمو والغفران حتى اشتهروا بين اليونان، الذين لا يرعون عهدا، بانهم أهل العهد والوفاء، فكانت المعاهدات التي تعقد معهم نافذة المفعول، يمكن الركون إليها والاعتماد عليها، بحيث أخذوا يفخرون على من عداهم بانهم يحفظون الوعد ولا ينقضون العهد، وأروع شاهد على ما امتاز به الفرس من خلق متين سليم، إنه كان من أندر النادر أن تؤجر فارسيا لتحارب به فارسيا آخر، بينما كان من السهل أن تؤجر

يونانيا لتحارب به يونانيا آخر[1].

وفي الحق إن طبائع الفرس كانت أكثر اعتدالا مما توحي به أنباء تاريخهم إذا حدثتنا عن الدماء المهرقة على أيديهم والشيوف المتصلة في أكفهم؛ فالفرس قوم أحرار يمتازون بالصراحة والكرم والمحبة والسخاء، وهم يدققون في رعاية "آداب السلوك" كما يفعل الصينيون، فإذا تقابل نظيران احتضن الواحد منهما الآخر عناقا وقبله في شفتيه، أما إذا قابل أحدهم من هو أعلى منه مرتبة وقدرا فعليه أن ينحني له انحناءة كبيرة كلها خشوع واحترام، فإذا قابل من هو دونه قدم له وجنته ليقبلها، فإذا تقابل مع فرد مع عامة الناس حنى له رأسه قليلا في دعة وهدوء، وهم يستنكرون تناول الطعام أو الشراب على قارعة الطريق، ويكرهون البصق أو التمخط في مكان عام، وكانوا حتى حكم "اكزرسيس" معتدلين في تناول الأطعمة والأشربة، يكتفون عادة بأكلة واحدة طوال اليوم، ويقتصرون من أنواع الأشربة على الماء العذب الرقراق، وكانوا يعتبرون النظافة أطيب نعم الحياة، ويرون أن الأعمال الطيبة تصبح

---

(١) عندما كان الفرس يحاربون الإسكندر في موقعة "جرانيقوس" كان أغلب مشاتهم من مأجوري اليونان، كذلك كان الحال في موقعة "ايسوس" فقد كان قلب الجيش الفارسي مكونا من ثلاثين ألف جندي يوناني من المأجورين.

عديمة الجدوى إذا أدتها أيد قذرة ملوثة، وإذا لم يستطع المرء القضاء على ما في جسده من قذر ودنس، فلا سبيل للملائكة إلى السكنى في جسده وبدنه؛ وقد فرضوا أقسى أنواع العقوبات على من ينشرون الأمراض السارية، وأصبح من عاداتهم أن يجتمع الناس في أيام الأعياد وهم متدثرون بالملابس النظيفة البيضاء، وجمعت "الأفستا" كما جمعت ديانة البراهمة واليهود كثيرا من مراسم التطهر وطقوسه، وخصصت أجزاء كاملة من كتابات "زردشت" لبيان المراسم المعقدة التي كانوا يتبعونها لتطهير البدن والروح، وكانت قلامات الأظافر وقصاصات الشعر والجهر بالصوت تعتبر من الأشياء الدنسة التي يتجنبها الفارسي العاقل ما لم تكن قد طهرت تطهيرا كاملا.

وكان الدين الزردشتي كذلك قاسيا في معاقبة خطايا الأجساد، فكان الاستمناء يعاقب بالجلد، وكان الرجال والنساء الذين يرتكبون الفحش أو المساحقة يعاقبون بالقتل "لأنهم أولى به من الأفاعي الزاحفة أو الذئاب العاوية". ومع ذلك فقد وردت نبذة في تاريخ "هيرودوت" تبين لنا أن التقاليد المرعية حادت قليلا عن التعاليم الشرعية في مسألة ذكرها لنا ذلك المؤرخ عندما قال: "إن الفرس يعتقدون أن خطف النساء لا يقوم به إلا الأشرار من

الناس، ومع ذلك فإنك تعتبر من أشد الناس جهلا وغباء إذا أتعبت نفسك في استرجاعهن والثأر لهن ..!! أما إذا أهملتهن في هذه الحالة فإنك من أشد الناس عقلا اتزانا، لن الحقيقة الواضحة تقرر أن اغتصاب النساء لا يأتي إلا إذا كن راغبات فيه راضيات به ..!!" وقد حدثنا في مكان آخر بان "الفرس تعلموا من اليونان حب الغلمان" ونحن لا نميل إلى تصديق هذا المؤرخ النابه في كل ما ذكر من أخبار، ولكننا نحس فيما أورده في هذه العبارة، بشيء من الصدق تشهد به شدة العقوبة التي تقررها "الأفستا" للواط، فإنها تقرر في أكثر من موضع .. "إن اللواط جريرة لا غفران لها، ولا يستطيع شيء في الوجود أن يكفر عنها".

ولم تكن تعاليم "زردشت" تشجع العذارى والعزاب على كثرة الزواج، ولكنها مع ذلك كانت تسمح بالزواج من اكثر من واحدة، كما كانت تسمح باتخاذ الخليلات والمحظيات، لأن الشعوب المحاربة تحتاج دائما إلى الأطفال والفتيان؛ وتقول "الأفستا": "إن الرجل المتزوج خير بكثير من الرجل الأعزب، والرجل الذي له منزل خير بكثير ممن لا منزل له، والرجل المعيل خير بكثير ممن لا عيال له، والرجل الثري خير بكثير ممن لا ثراء له" .. وهذه المقاييس الاجتماعية التي وردت في هذه العبارات

معروفة لدى جميع الأمم والشعوب، فنظام الأسرة لديها جميعا هو أقدس النظم وأسماها وأجدرها بالرعاية والصيانة، ويدعو "زرتشترا" في هذه المناسبة إلهه فيخاطبه بقوله: "يا إلهي ..! يا من صنعت هذا الكون المادي برمته .. أي مكان تسعد به الأرض أكثر من غيره ..؟!" فيجيبه "آهورا مزدا" بقوله: "إنه المكان الذي يبني فيه واحد من أتباعي منزلا، ويجعل في هذا المنزل مكانا للكاهن والماشية والزوجة والأطفال والأنعام، فتكثر الماشية، وتخصب الزوجة، وينمو الأطفال، وتتقد النيران، وتزداد نعم الحياة." .. وكان الكلب دون سائر الحيوانات يعتبر جزءا متمما للأسرة كما ورد في آخر الوصايا التي جاءت على لسان موسى.

وكان من الواجب على كل أسرة تمر بها دابة ضالة يثقلها الحمل أن يؤويها إلى منزلها وتعني بها العناية الكاملة، وقد خصصت عقوبات شديدة لمن يقدم طعاما فاسدا أو شديد السخونة لكلب من الكلاب؛ وجعلوا جزءا من يضرب كلبه أتاها ثلاث كلاب أن يجلدوه ألف جلدة وأربعمائة جلدة، وكان الثور عزيز القدر عندهم لقدرته الكبيرة على كثرة النسل والإنتاج، كما كانوا يقدمون للأبقار كثيرا من الأدعية والقرابين.

فإذا بلغ الفتيان سن الرشد أخذ الوالدان في اختيار الزوجات

الصالحات لهم، وكان مدى هذا الاختيار واسعا، لأن كثيرا من هذه الزيجات كانت تعقد بين الأخ وأخته، أو بين الوالد وابنته، أو بين الولد وأمه، أما الخليلات والمحظيات فكن متعة للأغنياء والأثرياء، وكان من دأب الطبقة العليا ألا يخرجوا للحرب إلا وهن في رفقتهم، وقد ذكروا أن "حريم" الملك في أيام الإمبراطورية الأخيرة كان يشتمل على عدد من المحظيات ينحصر بين **٣٢٩** و**٣٦٠** محظية، لأنه أصبح من التقاليد المرعية ألا ترقد امرأة في فراش الملك أكثر من مرة واحدة، إلا إذا كانت رائعة الحسن بالغة الجمال.

وكانت المرأة عند ظهور "زردشت" تتمتع بمكانة عالية في إيران. وتذهب الأخبار القديمة إلى أنها كانت تتمتع بحريتها الكاملة في ارتياد المجتمعات والمنتديات دون أن تتنقب أو تحتجب؛ وأنها كانت تملك الأملاك وتتصرف فيها كيفما شاءت؛ وأنها كانت تتمتع بما تتمتع به المرأة الحديثة من حق إدارة شئون زوجها باسمه أو بوكالة منه، ولكن مكانتها هذه أخذت تتقلص وترجع القهقري بعد وفاة "دارا الأول"، وكان هذا ملاحظا على الخصوص بين الطبقة الغنية من النساء، أما الفقيرات منهن فقد احتفظن بحريتهن في التنقل لاضطرارهن إلى الكد والعمل؛ وفيما عدا ذلك من

الأحوال كان اعتكاف النساء عن المجتمعات أمرا اضطراريا يلتزم منه في أوقات الحيض والولادة، وقد امتد هذا الأجراء حتى شمل حياة النساء الاجتماعية على العموم، وكان أساسا للنظام الإسلامي المعروف باسم ال"برده"[1] ونتج عن ذلك أن نساء الطبقة العليا أصبحن لا يجسرن على الخروج إلا في هودج تغطيها السدل والحجب، وأصبح محظورا عليهن الاختلاط بالرجال في المجتمعات الخاصة أو العامة، بل لقد منعت النساء المتزوجات من رؤية أدنى الرجال قرابة بهن ولو كانوا آباءهن أو إخوتهن، وترتب على ذلك بالضرورة أننا لا نجد للنساء ذكرا أو تصويرا في كافة النقوش أو التماثيل التي بقيت لنا من إيران القديمة، أما الخليلات والمحظيات فكن على عكس ذلك يتمتعن بحرية كبيرة، لأن المفروض فيهن أنهن يقمن بالترفيه عن مولاهن وضيوفه، وقد قوى نفوذ النساء في العصور المتأخرة، وتحكمن في شئون القصر، ونافسن الخصيان في الدأب على الدس والتآمر، وسابقن الملوك في إبداع وسائل التعذيب والتنكيل[2].

---

(١) المترجم: كلمة فارسية معناها أصلا الستار أو الحجاب، وقد أطلقوها على الحرم لاستتار النساء فيه عن أعين الرجال.

(٢) كانت "استاتيرا" زوجة مثالية للملك "ارتا كزرسيس الثاني" ولكن أمه "باريساتس" حقدت علها وقتلتها مسمومة، ثم شجعت الملك على أن يتزوج ابنته

ولم يكن أدعى إلى كسب الاحترام والتبجيل من التزوج وإنجاب الأطفال لأن الفرس كانوا يغالون في تقدير الأبناء ويعتبرونهم ثروة اقتصادية لآبائهم، وثروة حربية لملوكهم، أما البنات فكانت ولادتهن مجلبة للوعة والحسرة لأن الغرض من تربيتهن كان منصبا على إعدادهن لمنزل رجل آخر يجني فائدتهن.

ومما قاله الفرس في هذه المناسبة: "إن الرجال لا يبتهلون إلى الله مطلقا من أجل البنات، وكذلك الملائكة لا تعتبروهن بركة يجوز منحها لبني البشر ..!"

وكان من عادة الملك في كل سنة أن يرسل الهدايا لكل والد كثر أبناؤه وعياله، وكأنما هو بذلك يقدم له عربونا لقاء أرواح بنيه ودمائهم.

وكان فجور النساء وزنا المتزوجات منهن جرمين قابلين للغفران ما لم يقترنا بإجهاض الحمل، لن الإجهاض في رأيهم جريمة تفوق ما

"أتوسا" وقاهرت معه على حياة خصي من الخصيان فلما لعبا التردوكسبت، أمرت بسلخه حيا، وأمر ارتا كزرسيس في مرة من المرات بان يقتلوا جنديا كاريا، وعملت "باريساتس" بالأمر وأدخلت على حكم الملك بعض التحسينات بأن أمرت بالجندي أن يشد من أطرافه عشرة أيام ثم يسلمون عينيه ثم يصبون فيهما وفي أذنيه الفضة المصهورة حتى يموت على هذه الصورة الشنعاء.

عداها من الجرائم ولا يقل عقاب مرتبكها عن الإعدام، وقد ورد في إحدى الشروح القديمة وهو ال"بندهش" وصف لجملة وسائل لمنع الحمل، ولكنه حذر الناس من استعمالها، وقد جاء في الكتاب المقدس الفارسي عند ذكر النسل: "إن المرأة إذا خرجت من الحيض تبقى عرضة للحمل عشرة أيام بلياليها إذا ما اقترب منها الرجال".

وكان من عادة الفرس أن يتركوا الطفل في حضانة أمه حتى الخامسة من عمره، ثم يرعاه أبوه بعد ذلك حتى السابعة، فإذا بلغها أدخلوه المدرسة.

وكان التعليم مقصورا في أغلب الأحوال على أبناء الأغنياء، يتولاه جماعة من الكهنة والقساوسة، يجتمعون بالتلاميذ في المعابد أو في بيوتهم الخاصة.

وكان الفرس يحرصون كل الحرص على ألا تصاقب المدرسة سوق البلدة، حتى لا تفسد أخلاق الصغار بما يرونه منتشرا في الأسواق عادة من أنواع الكذب والغش والحنث بالإيمان، وكانت الدرس عبارة عن ال"أفستا" وشروحها، وهي جميعها تشتمل على موضوعات تتصل بالدين والطب والقانون، وكانت الوسيلة في تعلمها مقصورة على حفظ مقطوعات طويلة عن ظهر قلب ثم

إنشادها وإعادتها غيبا، أما أبناء الطبقات المترفة فكانوا لا يكلفون بتعلم الكتابة ورقم الحروف، بل يقتصر تعليمهم على ثلاثة أشياء هي ركوب الخيل والرمي بالقسي وقول الصدق، وكانت الدراسات العالية بين أبناء الطبقة العليا تمتد إلى سن العشرين أو الرابعة والعشرين، فيتخصصون جميعا في فنون الحرب وأنواع القتال، ويمهد بعضهم لشغل المناصب العامة أو الولاية على الأقاليم.

وكانت طريقة التعليم في هذه المدارس العالية عسيرة شاقة، فكان على الطلبة أن يستيقظوا مبكرين، وأن يأخذوا في العدو أشواطا بعيدة، وأن يركبوا الجياد الجامحة ركضا في سرعة فائقة، وأن يخرجوا للعوم والصيد وتتبع اللصوص، وأن يزرعوا الحقول ويغرسوا الأشجار، وأن يسيروا المسافات البعيدة في لفحة الشمس القائظة أو لاذعات البرد القارسة، وان يتعلموا كيف يتحملون شدائد الجو وتقلباته، وكيف يقتاتون بأحقر الأقوات والأطعمة، وكيف يعبرون مجاري الأنهار دون أن تبتل أرديتهم أو معداتهم.

ولا شك أن طريقة التعليم هذه كانت قمينة بأن تثلج خاطر "فردريك نيتشه" في ساعاته الحائرة التي استطاع أن يتناسى فيها ثقافة اليونان القديمة وما اتصفت به من تنوع بهيج وبريق أنيق.

الفصل الثامن

العلوم والفنون

الطب والفنون الصغيرة، مقبرتا "قورش" "ودارا"، قصور برسيوليس، إفريز الرماة، تقدير الفن الفارسي

تعمد الفرس فيما يظهر أن يهملوا تعليم أبنائهم أي فن من الفنون إلا فن الحياة، فكانت الآداب في رأيهم متعة قليلة الجدوى، وكذلك كانت العلوم سلعة في إمكانهم أن يستوردوها من "بابل". وفي الحق أنهم عشقوا الأشعار والروايات الخيالية، ولكنهم تركوا الاشتغال بها لجماعة من المأجورين والمستضعفين وفضلوا الانغماس في الأحاديث الطيبة الشيقة، مضحين بذلك بما يجلبه البحث والاستقراء من متع ذهنية هادئة صامتة، وكانت أشعارهم تغني أكثر مما تنشد، فإذا مات المغنون ماتت بموتهم هذه الأشعار، وذهبت بذهابهم هذه القصائد والمنظومات.

وكان الطب في البداية وظيفة يقوم بها الكهنة ورجال الدين، وكان هؤلاء يمارسونه وفقا لمبدأ واحد يقرر أن "الشيطان" قد خلق ٩٩٩ و٩٩ نوعا من الأمراض والعلل، وانه يمكن شفاؤها جميعا بخليط من السحر والأدوية، وقد فضلوا في ذلك استعمال الرقي والتعاويذ على استعمال الأدوية والعقاقير، قائلين أن الرقي إذا لم تشف المرض فهي لا تقتل المريض، وأما العقاقير فلا يمكن أن يقال عنها مثل هذا القول، ومع ذلك فقد ارتقى الطب المدني بنمو الثروة في "إيران". حتى إذا كان عصر "ارتاكزرسيس" نشأت جمعية طبية حسنة التنظيم والتنسيق تضم جماعة من الأطباء

والجراحين، حددت أجورهم كما فعلت قوانين "حامورابي" وفقا لمكانة المريض ومقامه الاجتماعي. وقد جرت العادة على معالجة رجال الدين مجانا، وكان لزاما على الطبيب الجديد أن يبدأ حياته العملية بمعالجة الكفار والأجانب فترة من الزمن، كما نفعل نحن الآن حين يبدأ أطباؤنا الناشئون بمعالجة المرضى من المهاجرين والفقراء لمدة سنة أو سنتين.

وقد أمرهم "إله النور" بذلك كما يبدو من المقطوعة التالية:

"يا إله الكون ... يا أيها الرب المقدس ..! دعني أسألك"

"عمن يشاء من عبادك أن يمارس فن التطبيب والشفاء، أيمارسه"

"أولا على المرضى من عباد آهورا مزدا، أم يجربه أولا على المرضى عبدة الشيطان ...؟"

"فأجاب "آهورا مزدا" على هذا السؤال بقوله:"

"عليه أن يجرب خبرته أولا على عبدة الشياطين قبل أن يجربها على عبدة رب العالمين، فإذا استعمل مشرطا في جراحة يجربها ولاحد من عبدة الشياطين فمات، واستعمله ثانية لواحد آخر مثله فمات، ثم استعمله مرة ثالثة لثالث مثله فمات، فإنه لا يصلح

لممارسة الطب إلى أبد الآبدين، وعليه أن يقلع عن معالجة المرضى من عبادي الصالحين ..!! فأما إذا استعمل مشرطا في معالجة واحد من أتباع الشيطان فشفاه، ثم استعمله مرة ثانية في معالجة واحد آخر مثله فشفاه، ثم استعمله مرة ثالثة في معالجة ثالث مثله فشفاه، فغنه يصلح لممارسة الطب إلى أبد الآبدين، وله متى شاء أن يعالج بالجراحة كل مريض من عباد الله الصالحين ..!!"

وقد وقف الفرس أنفسهم على خدمة الإمبراطورية، فاستنفدوا بذلك جميع وقتهم ونواحي نشاطهم في الحرب والقتال، واضطروا كالرومان إلى أن يعتمدوا إلى حد كبير، في ترقية فنونهم بما يجلب إليها من الخارج، ومن الحق أن نذكر أنهم كانوا يمتازون بإحساس مرهف لتقدير الأشياء الجميلة، ولكنهم مع ذلك كانوا يعتمدون في صنع هذه الطرف والبدائع على الفنانين الأجانب أو الذين ولدوا من أصل أجنبي، ولم يبخلوا مطلقا عن الإنفاق عليها مما يجبونه من موارد الخراج والضرائب.

وكانوا يمتلكون المنازل الجميلة والحدائق الغناء، التي تكبر وتتسع أحيانا حتى تصبح حظيرة للصيد والقنص أو مأوى لمختلف الحيوانات كحدائق الحيوان في عصرنا الحاضر.

وكانوا يمتلكون فاخر الأثاث والرياش، فيمتلكون الموائد

المصفق برقائق الفضة والذهب، ويمتلكون الأرائك المغطاة بأبهج الأغطية وأجملها، ويمدون البسط والسجاجيد الرخوة ذات النسيج اللين والألوان البهيجة الشبيهة بألوان الأرض والسماء.

وكانوا يشربون في كؤوس من ذهب، ويزينون موائدهم ومناضدهم بالأصيص الجميلة التي تبدعها أيدي الأجانب من مهرة الصناع والفنانين[1].

وكانوا يحبون الغناء والرقص، والعزف على العود والناي، والنقر على الدفوف والطبول، وكانت حليهم كثيرة مختلفة الأنواع، تتدرج من التيجان والأقراط حتى تصل إلى الخلاخيل والأحذية المذهبة، وكان الرجال أيضا يتأنقون بأنواع الحلي يشدونها في رقابهم أو يعلقونها في آذانهم وسواعدهم، فأما اللؤلؤ والياقوت والمرجان واللاجورد، فكانوا يجلبونها من خارج ديارهم، وأما الفيروز فكانوا يجلبونه من داخل بلادهم ومناجمهم، وقد اعتادت طبقة النبلاء والأغنياء أن تتخذ منه أختامها .. وكثيرا ما وجدت بالإضافة إلى ذلك أحجار كريمة ذات أشكال شيطانية غريبة، مثلوا بها ما

---

(١) عرضت إحدى هذه الأصيص في "المعرض الدولي للفنون الفارسية" في مدينة لندن سنة ١٩٣١ فكانت الوحيدة التي اشتملت على نقش قديم يدل على دلالة ظاهرة على أنها كانت مملوكة ل"ارتا كزرسيس الثاني".

تصوروه من أرواح شريرة وشياطين كثيرة؛ وكان الملك يجلس على عرش من ذهب، يقوم على أعمدة من ذهب، تعلوه مظلة من ذهب.

أما فن البناء والعمارة فهو الفن الوحيد الذي استطاع الفرس أن يستقلوا فيه بطريقتهم الخاصة، وقد بنوا في عهد "قورش" و"دار الأول" و"اكزرسيس الأول" عددا من المقابر والقصور، لم يستطع علماء الآثار حتى الآن الكشف عنها بتمامها، ولكن ربما جاء الوقت القريب الذي تستطيع فيه المعاول والفؤوس أن تكشف لنا عن هذه الدفائن الضائعة، فيزيد بذلك تقديرنا للفن الفارسي وإعجابنا به[1].

ومن حسن الحظ أن "الإسكندر" ابقى لنا في مدينة "بازاجاده[2]" مقبرة "قورش" بما امتازت به من جمال وروعة، ولكن مع الأسف أن طريق القوافل تخترق الآن مكانا عاريا كانت تقع

---

(١) تشتغل الآن بعثة أمريكية موفدة من قبل "معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو" بالتنقيب عن الآثار في مدينة "برسيوليس" ويرأس هذه البعثة الدكتور "جيمس برستيد" James H, Breasteq وقد استطاعت في يناير سنة ١٩٣١ أن تكشف لنا عن مجموعة من التماثيل ذات قيمة أثرية تعادل جميع ما كان معروفا من التماثيل الفارسية الأخرى.

(٢) المترجم: تعرف لدى الفرس باسم "تخت مادر سليماني".

عليه من قبل قصور "قورش" وابنه المجنون "قمبيز" ولم يبق من أثر لهذه القصور إلا جملة من الأعمدة المحطمة التي تتناثر هنا وهناك في غير ترتيب ولا تنظيم، وربما وجدنا بينها جزءا جانبيا لباب من الأبواب القديمة مازالت منقوشة عليه صورة "قورش" بطريق الحفر والنقش البارز.

وعلى مقربة من هذا المكان، وفي وسط الوادي، تجثم مقبرة "ورش" في جلالها الذي يمثل لنا حال الفن منذ أربعة وعشرين قرنا سالفة .. وهي عبارة عن ضريح بسيط من الحجارة، يوناني المظهر والشكل، يقوم على ساحة منبسطة، ويبلغ ارتفاعه خمسة وثلاثين قدما؛ ومن المؤكد أنه كان عند بنائه أكثر ارتفاعا مما هو عليه الآن، وانه كان قائما على نوع من القواعد التي تقوم عليها في العادة مثل هذه الأبنية .. وهو في هذه الأيام مهجور موحش، لا تكاد تبقى منه إلا صورة شاحبة من شكله الأصلي، محرومة من كل أثر من آثار الفن والجمال؛ وكأنما أحجار المهدمة المحطمة، تقص علينا قصتها الحزينة الصامتة، وتطاردنا بالحقيقة المريرة التي تحدثنا بأن الجماد أبقى خلودا وأثبت وجودا من سائر الكائنات وجميع المخلوقات.

فإذا تعمقنا جنوبا، واقتربنا من مدينة "برسيوليس[1]" وجدنا "نقش رستم" حيث تقع مقبرة "دارا الأول" وقد قدت هذه المقبرة، كالأضرحة الهندية، في جانب صخري من الجبل، ونحت مدخلها بطريقة خاصة جعلته يشبه واجهات القصور، وعلى هذا المدخل بوابة صغيرة تحفها أعمدة أربعة رفيعة، يعلوها إفريز نقشت عليه نقوش واضحة، تمثل الشعوب التابعة لحكم "إيران"، تتوجها منصة يبدو فيها الملك وهو يعطي عهده لإله الخير "آهورا مزدا" وللقمر.

وقد استطاع الفنان الفارسي أن يخرج فكرته في بناء هذه المقبرة إخراجا أرستقراطيا بديعا ميزها بالحسن والبساطة والجمال.

أما الأبنية الفارسية الأخرى التي استطاعت أن تنجو من أفعال الحروب والغارات والسرقات وتقلبات الأجواء مدة السنوات الألفين الماضية فتكاد تنحصر في مجموعة من حطام القصور وبقاياها .. ففي "إكباتانا[2]" بنى الملوك الأقدمون قصرا ملكيا من خشب الساج والسرور المصفق برقائق المعادن؛ وقد بقى هذا القصر قائما حتى أيام "بوليبيوس" في سنة ١٥٠ ق. م ثم تهدم بعد ذلك فلم تبق منه باقية.

---

(١) المترجم: يسميها الفرس "تخت جمشيد"

(٢) المترجم: هي مدينة "همدان" المعروفة.

أما أروع الآثار الباقية من إيران القديمة، فهي مجموعة الدرجات الحجرية والساحة الفسيحة وما عليها من أعمدة شامخة في مدينة "برسيوليس" .. وقد أخذ الكشف عنها يزداد يوما بعد يوم حتى كاد يخلصها من قبضة الأرض الكتومة ذات الأسرار الخافية، فانكشف لنا في هذه البقعة المكان الذي اختاره ملوك الفرس منذ أيام "دارا" ليؤسس فيه كل واحد منهم قصرا منيفا يحفظ به اسمه من جائلة الزمان وغائلة النسيان.

فأما الدرجات الخارجية التي تصل بين أسفل الوادي والساحة المرتفعة التي تقوم عليها هذه القصور فقد بذت جميع ما نعرفه من أبنية موجودة على وجه الأرض، وهي في أغلب الظن منقولة عن الدرجات المحيطة بأبراج الكلديين ومعابدهم المعروفة باسم ال"زيجورات" في مدينة "أور". ولكنها تمتاز عنها بجمال فريد النوع، لأنها يسيرة المرتقى، واسعة الجانبين، يستطيع عشرة فرسان متحاذين أن يرتقوها جميعا في آن واحد وفي يسر وسهولة[١]. وليس هناك من شك في أنها كانت مدخلا رائعا لهذه الساحة الفسيحة التي اختاروها لبناء هذه القصور الملكية الشامخة، ويتراوح

---

(١) وصف فرجيسون **Fergusson** هذه الدرجات فقال عنها: "إنها أبدع درجات موجودة في أية بقعة من بقاع العالم"

ارتفاع هذه الساحة ما بين العشرين قدما والخمسين قدما، ويبلغ طولها ألف قدم وخمسمائة قدم، وعرضها ألف قدم[1].

فإذا التقت عند القمة هذه الدرجات الصاعدة من كلا الجانبين، ألفينا أمامنا مدخلا واسعا، تحفه تماثيل هائلة لجملة من الثيران، تعلوها رؤوس بشرية مجنحة على شاكلة ما نجد في أردأ التماثيل الآشورية، فإذا تقدمنا قليلا وجدنا على اليمين أبدع أنموذج لفن العمارة الفارسي ممثلا في قاعة "اكزرسيس" الأول المعروفة باسم "جهل منار" وهي تقع وما يتبعها من حجرات على مساحة من الأرض تزيد على مائة ألف قدم مربع، أي أنها بمعنى آخر أكثر اتساعا من "الكرنك" أو أية كاتدرائية "ميلان".

ويصعد الصاعد إلى هذه القاعة "الكبرى" بواسطة مجموعة أخرى من الدرجات كانت محفوفة بجدران قصيرة، نحتت على جوانبها أجمل النقوش البارزة التي أمكن العثور عليها حتى الآن في إيران.

ولم يبق من الأثنين وسبعين عمودا التي بنوا عليها قصر "أكزرسيس" إلا ثلاثة عشر عمودا ما زالت قائمة بين حطام قصره، وكأنها جذوع النخل العالية، قد انتشرت في أرجاء واحة

(١) تجري تحت هذه الساحة قنوات للتصريف معقدة النظام، يبلغ قطر الواحدة منها ستة أقدام، وهي منحوتة في أغلب الأحيان في جوف الصخر الصلد.

مقفرة نائية.

وهذه الأعمدة الرخامية مقطعة الأوصال في الغالب، ولكنها رغم ذلك من أبدع ما أخرجته يد الإنسان، فهي نحيلة دقيقة، لا يوجد لها نظائر في أعمدة مصر أو اليونان، وهي كبيرة الارتفاع يبلغ علوها أربعة وستين قدما، وقد حفروا على سيقانها ثماني وأربعين ثلمة صغيرة، جعلوا قواعدها تشبه الأجراس المحفوفة بأوراق الشجر المقلوبة، كما جلعوا رؤوسها على هيئة الزهور يعلوها صدران لثورين متقابلين، تتصل رقبتاهما من الخلف، لتستقر عليها عوارض السقف التي يغلب على الظن إنهم اتخذوها من الخشب دون غيره من المواد، لأن مثل هذه الأعمدة الرفيعة الهينة، التي يبتعد الواحد منها عن الآخر بمسافة غير قصيرة، لم تكن لتقوى على تحمل العوارض الحجرية الثقيلة، وقد صنعوا جوانب الأبواب والنوافذ من حجر أسود لامع، ينبعث منه بريق شبيه ببريق الأبنوس، وكسوا جوانب الجدران والحوائك بالقراميد اللامعة المنقوشة بأنصع صور الحيوانات والزهور.

أما ما عدا ذلك من الأعمدة المستديرة أو المربعة، وما يوجد من درجات وسلالم أخرى فكانت من الحجر الجيري الأبيض، أو المرمر الأزرق الصلد.

وخلف "جهل منار" وإلى شرقيها، تقع "قاعة الأعمدة المائة" .. ولكن من أسف إنه لم يبق من هذه الأعمدة إلا عمود واحد، وإلا أحجار متناثرة، لا يستطيع الناظر إليها أن يدرك صورة المكان على أصله إلا بمشقة وصعوبة، ويقول قائل إنه من الجائز أن يكون هذان القصران أبدع قصرين بنتهما يد الإنسان في العالمين القديم والحديث.

وقد بنى "ارتا كزرسيس" الأول والثاني قصورا في مدينة "السوس" لم يبق منها إلا بعض دعائمها وأسسها، وكانت هذه القصور مبنية من الآجر المحروق المكسو بأنصع أنواع القاشاني ذي الألوان الزاهية البهيجة؛ وقد عثر المنقبون في هذه المدينة أيضا على "إفريز القناصة" وهم جماعة من المحاربين، يغلب على الظن أنهم من "أخلص خلصاء الملك" لأنهم كانوا يقومون بحراسته والمحافظة على حياته.

ومما يؤيد هذا الرأي أن ملابس هؤلاء "القناصة" المهيبين، تختلط بها جملة من الألوان الزاهية الواضحة، تجعلها أشبه بملابس الحفلات، لا بملابس الحرب والقتال، وكذلك بدت شعورهم ولحاهم مقصوصة قصا مهذبا بديعا، لا تشعيث ولا اضطراب، كما بدت أيديهم ممدودة في زهو وغرور بما انقبضت عليه أكفهم من رماح وحراب.

وقد كان النقش والحفر في مدينة "السوس" وفي العواصم الإيرانية الأخرى فنين غير مستقلين، نشأ تبعا للعمارة والبناء، وكانت صناعة التماثيل في أغلب الأحيان ن عمل الفنانين الأجانب الذين يفدون على هذه العواصم من أشور وبابل واليونان.

وبهذا يمكننا أن نصف "الفن الفارسي" بنفس العبارة المختصرة التي نصف بها سائر الفنون العالمية الخرى، فنقول إن أكثر عناصره أجنبيه عنه؛ فمقبرة "قورش" منقولة عن مقابر "ليديا" والأعمدة النحيلة ما هي إلا تطور مهذب لأعمدة الأشوريين، وصفوف الأعمدة والنقوش البارزة ما هي إلا فكرة مستوحاه من المصريين، ورؤوس الأعمدة التي جعلوها على شاكلة الحيوانات ما هي إلا عدوى سرت إلى الفرس من أهل "بابل" و"نينوي". ومع ذلك كله فقد امتاز البناء الفارسي في مجموعة بمميزات خاصة، جعلت فن العمارة الفارسية يبدو متميزا عن سائر زملائه في مختلف الأقطار، وقد زودته هذه الميزات بذوق أرستقراطي رفيع، جعله يسرع إلى تهذيب الأعمدة المصرية الشاهقة والكتل "الموصلية" الكثيفة لتصبح في صورتها الجديدة في مدينة "برسيوليس" مصدرا للروعة والأناقة والتناسب والدقة.

وسمع اليونان، في كثير من الدهشة والعجب، بأوصاف هذه

القاعات والقصور، ونقل إليهم رجالاتهم ومبعوثوهم كثيرا من الأخبار الشائقة عن علو الفن والرفاهية في إيران، فأسرعوا إلى محاكاة الفرس في أعمدتهم المتوجة بالزهور ورؤوس الحيوانات، ولكنهم اكتفوا بان يجعلوا رؤوسها ذات نتوءات ملساء على الطريقة "الأيونية". واختصروا في طول هذه الأعمدة، وقصروا سيقانها، حتى تقوى على حمل ما يركب عليها من عارضات خشبية أو حجرية، ولم يبق بعد ذلك إلا فرق يسير جدا بين "برسيوليس" وبين "أتينا" من حيث العمارة والبناء، ثم استغرق الشرق الأدنى بعد ذلك في سباته العميق، ووضع تراثه الخالد برمته في خدمة اليونان وتحت أقدامها.

الفصل التاسع

دور الانحطاط

كيف تزول الأمم ... اكزرسيس، صفحة من القتل والغدر، ارتاكزرسيس الثاني .. قورش الأصغر .. دارا الأصغر

أسباب الانحطاط السياسية والحربية والخلقية، الإسكندر يفتح إيران ويزحف على الهند

لم تدم الإمبراطورية الفارسية التي أسسها "دارا" إلا قرنا واحدا على وجه التقريب، ثم انقصم بعد ذلك عمودها الفقري بما أصابها من ذلة وهوان في الهزائم المتكررة التي لحقت بها في الوقائع الثلاثة المعروفة "مراتون" و"سلاميس" و"بلاطيا". فلما أخذ الأباطرة يستبدلون إله الحرب "مارس" بإلهة الحب والجمال "فينوس" انحدرت أمتهم في هاوية سحيقة من الفساد والفتور والتبلد.

وليس هناك من شك في أن الاضمحلال الذي أصاب "إيران" قد سبق في عامة أجزائه وسائر تفاصيله الاضمحلال الذي أصاب "روما"، فأخذ عامة الناس ينحطون أخلاقيا، ويتسفلون عاطفيا، وأخذ أصحاب العرش يهملون الأمر حينا ويتمادون في الغلظة والشدة أحيانا أخرى؛ وانتقل الفرس، كما فعل "الميديون" من قبلهم، خلال أجيال قليلة من "الرواقية" المتعففة إلى "الأبيقورية" النهمة، فأصبحت ألوان الأكل والطعام ملهاة يتلهى بها نبلاؤهم ويتفنن فيها سراتهم؛ وكان من عاداتهم ألا يأكلوا إلا مرة واحدة طيلة النهار، فأخذوا الآن يفسرون هذه القاعدة السليمة بما يجيز لهم أن يمدوا هذه الأكلة الواحدة من وقت الظهيرة إلى غسق الليل ...!! وأصبح من دأبهم أن يملأوا بيوت طعامهم بمختلف الأطعمة والأشربة، وأن يقدموا لضيوفهم الذبائح كاملة لم يتقطع شيء منها،

فإذا جلسوا للطعام ملأوا بطونهم بأنواع اللحوم الدسمة اللذيذة، وإذا انفضوا منه صرفوا بقية وقتهم في التفكير في استنباط أخلاط جديدة أو أنواع مستحدثة من الإطرية والحلوى .. وامتلأت بيوت الأغنياء بحاشية فاسدة مفسدة من الخدم والأتباع؛ وانغمس جميع الناس في احتساء الخمر حتى أصبحت العربدة نقيصة يشتركون فيها بجميع طبقاتهم وطوائفهم: وانتهى كل ذلك إلى نتيجة واحدة مؤكدة، هي أن الإمبراطورية الفارسية التي خلقها "قورش" و"دارا" ثم ورثها "اكزرسيس" كاملة سليمة قد انتقلت إلى أيدي أعقابه وخلفائه فعملوا على هدمها وتحطيمها.

وكان "اكزرسيس الأول" ملكا كامل الصفات، فكان من حيث المظهر، طويل القامة قوي الهامة، اتفق الجميع على جعله أكثر الرجال أناقة وجمالا في مملكته، وربما كانت أناقته هذه سببا من أسباب بلائه ونكبته، لأن أصحاب الجمال من الرجال يمتلئون عادة بالزهو والعجب والغرور، ولأن أصحاب القوة والشدة منهم لا بد أن تستذلهم امرأة تستطيع أن تكبح جماحهم وتجدع أنوفهم، ومن هنا وقع "اكزرسيس" فريسة لعدد كبير من الزوجات والمحظيات، وأصبح بذلك مثالا يحتذيه رعاياه في إشباع غرائزهم الجنسية وأهوائهم الحسية، فلما دارت عليه الدائرة في موقعة

"سلاميس" لم تكن هزيمته مفاجأة غير متوقعة، بل كانت حقيقة مقدرة منتظرة، لن عظمته قامت على أساس واحد فقط هو حبه للعظمة، دون أن يمهد نفسه لمواجهة الشدائد، أو يزودها بما يحتاج إليه الملوك الحقيقيون من بأس وحزم، فلما انقضت عشرون سنة على حكمه الزاخر بأنواع الدسائس وضروب التراخي في الإدارة والتهاون في إنفاذ الأمور، قتله واحد من رجال القصر اسمه "ارتبانوس" ثم أخذوه فدفنوه في كثير من مظاهر العظمة والأبهة والرضاء الشامل.

ولن تستطيع سجلات "روما" مهما فعلت أن تنافس سجلات "إيران" فيما اشتملت عليه من حوادث القتل الدامية ووقائع الغدر النابية إلا بعد أيام "تبريوس" ذلك لأنه عندما تولى "ارتا كزرسيس الأول" عرش إيران أمر بإعدام قاتل "اكزرسيس" وبقى على العرش فترة طويلة، أعقبه فيها على الحكم "اكزرسيس الثاني" ثم هم بهذا الملك الجديد أحد إخوته من أبيه واسمه "سوجد يانوس" فقتله بعد أسابيع قليلة من جلوسه على العرش، وجاء دور هذا القاتل بعد ستة أشهر، فقتله "دارا الثاني" وتمكن من إخماد الثورة التي تولاها "تر يتو تشميس" وقبض عليه وأمر بذبحه على ملأ من الناس، ثم أخذ زوجه فمزقها إربا إربا، ودفن أمه وسائر إخوته وهم

أحياء لما تخمد أنفاسهم أو يجمد إحساسهم.

فلما مات "دارا الثاني" خلفه على العرش ابنه "ارتاكزرسيس الثاني" فحارب أخاه "قورش الأصغر" حربا عنيفة في موقعة "كوناكسا" عندما حاول أن يستولى منه على مقاليد الحكم والسلطان، فلما تمت له الغلبة على أخيه بقى في الملك فترة طويلة تآمر عليه فيها ابنه "دارا" ومات كسير القلب حزين الفؤاد وهو يعلم أن ابنه الآخر "أوجوس" قد أخذ في تدبير الحيلة لذبحه والقضاء عليه.

وتولى "أوجوس" الحكم مدة عشرين سنة، مات بعدها مسموما على يد قائده "باجواس" وأسرع هذا القائد الفاتك إلى تنصيب ابن الملك القتيل واسمه "أرسيس" في مكان أبيه، وأعقب ذلك بقتل إخوته ليضمن له الانفراد بالملك والسلطان، ثم ما لبث أن أقدم على قتل "أرسيس" وأطفاله الصغار، ونادى بالملك لواحد من أصدقائه المخنثين المسمى "كودومانوس" وولاه العرش مدة السنوات الثماني التالية باسم "دارا الثالث" وهو الملك الذي انتهى الأمر بموته والقضاء على مملكته في موقعة "أربلا" على يد الإسكندر المقدوني.

ومن المعروف أن الإمبراطوريات بطبيعتها عرضة للزوال

السريع والانحلال العاجل، لأن الهمم العالية التي تخلفها سرعان ما تضمحل في نفوس من يرثونها، ولأن الشعوب الخاضعة لسلطانها سرعان ما تأخذ في استجماع قوتها لكي تتمكن من استرداد حرياتها الضائعة وحقوقها المسلوبة، فإذا أضفنا إلى ذلك كله أنه ليس من الطبيعي أن تبقى الشعوب ذات الألسنة المختلفة والديانات المختلفة والأخلاق والعادات المختلفة في وحدة طويلة (لأن تكوينها العضوي يأبى مثل هذا الاتحاد والارتباط) ثم راعينا أن العنف والشدة هما وحدهما الكفيلان بالإبقاء على هذا الرباط المصطنع، وجدنا أن الإمبراطورية الفارسية لم تستطع أن نفعل شيئا طوال قرنين من الزمان للتقليل من مدى هذا الاختلاف البين في تكوين شعوبها وتركيب عناصرها، بل اكتفت على العكس من ذلك بأن تحكم جماعة من الشعوب المتباينة، دون أن تفكر في أن تخلق من قواها المتطاحنة دولة موحدة البناء مرتبطة الأجزاء متماسكة البنيان، وأخذت السنون تنقضي وتتصرم، وكلما مضى منها عام اشتد الكرب وازداد الخطب وأصبح من العسير المحافظة على هذه الشعوب في وحدة وارتباط، ثم أخذت قوة الأباطرة في التراخي والتقلص، وازدادت أطماع الأمراء وجرأتهم، فأخذوا يشترون القواد والوزراء ببذل المال لهم لكي يحدوا من سلطة الملك الجالس على العرش ولكي يخيفوه بضروب الوعيد وأنواع التهديد،

ثم أقدموا على جمع الجيوش الجرارة والضرائب الفادحة، واشتغلوا بعد ذلك في تدبير المكائد للقضاء على الملك القائم في الحكم، وقد عملت الحروب المتصلة والفتن الدائبة على إنهاك "إيران" وإضعافها، وماتت كثرة من أبنائها الشجعان في حومات الوغي وحلبات النزال والطعان، ولم يبقى منهم إلا كل هزيل مستضعف جبنت نفسه وارتعدت فرائضه، فلما أزفت الآزفة، وأخذوا يجمعون الجيوش لملاقاة "الإسكندر" دلت الحوادث على أن جيش الإيرانيين برمته ما هو إلا مجموعة من الجبناء الرعاديد، قد حرموا كل مران حربي، وكل جديد من آلات الحرب والقتال، كما حرم قادتهم من كل دراية بالفنون الحربية ووسائل الكر والفر؛ فلما وقعت الواقعة كانوا كالأطفال الضالين يرتكبون أشنع الأخطاء على غير هدى أو رشاد، تاركين قواتهم دون أن يزودها من السلاح إلا بالخناجر القديمة، وكأنهم لم يجمعوهم إلا ليجعلوهم هدفا ميسرا لرماح المقدونيين الطويلة وفيالقهم المنظمة العتيدة، ومن الحق أن نقرر هنا أن "الإسكندر" كثيرا ما لها وطرب، ولكنه لم يكن يفعل ذلك إلا بعد أن يضمن كسب المعركة والفوز على خصومه، وقد أحضروا إليه قواد الفرس وأمراءهم فوجدهم عازفين عن الحرب والقتال، ووجد الجيش الإيراني خلوا من الجنود الحقيقيين إلا من كان منهم من أصل يوناني.

هذا النزاع بين اليونان وإيران كان متوقعا منذ اليوم الأول الذي أدار فيه "اكزرسيس" ظهره وعاد إلى بلاده مهزوما في موقعة "سلاميس" ذلك لأن إيران كانت حينذاك تتولى حراسة الطريق التجاري في آسيا حتى شواطئ البحر الأبيض المتوسط، كما كانت اليونان تتولى حراسة البقية الباقية من هذا الطريق العظيم، فكان من الطبيعي أن تتحرك الأطماع في نفوس هاتين الأمتين، فتجعل الحرب واقعة لا محالة بينهما، فلما وجدت اليونان زعيما يتولى قيادتها ويجمع أشتاتها، أخذت تندفع في غير وجل إلى محاربة إيران ونزالها.

وعبر "الإسكندر" مضيق "البسفور" دون أن يعترضه معترض، وكان يصطحب معه قوة لا يعتد بها في نظر الأسيويين، قوامها ثلاثون ألف راجل وخمسة آلاف فارس[1]. وحاول الجيش الفارسي، وعدده أربعون ألف مقاتل أن يصدهم في مكان اسمه "جرانيقوس"، فلما انجلت الموقعة، فقد اليونان ١١٥ رجلا وفقد الفرس ٢٠٠٠٠ رجل، ثم تقدم "الإسكندر" متجها إلى الجنوب والشرق، فما زال يأخذ المدن تلو المدن، ويتلقى الجزية في أثر

---

(١) يقول جوزيقوس: "إن جميع الأسيويين كانوا يعتقدون أن المقدونيين لن يستطيعوا أن يجرؤوا على محاربة الفرس بسبب كثرتهم وزيادة عددهم".

الجزية، حتى انقضت على ذلك سنة كاملة، استطاع فيها "دارا الثالث" أن يجمع جيشا من المحاربين والمغامرين بلغ ٦٠٠٠٠٠ مقاتل، عبر بهم نهر الفرات على جسر من القوارب في خمسة أيام، وقالوا أنه حمل خزانته أثناء هذه الموقعة فلم يكف لنقلها إلا ستمائة رأس من شداد البغال وثلاثمائة رأس من خيار الإبل والجمال، فلما التقى الجيشان في مكان اسمه "إيسوس"، ولم يكن لدى الإسكندر إلا جيشه الذي بلغ الثلاثين ألف مقاتل، شاءت الأقدار أن تبتلي "دارا" بالغباء الذي يجعل بنهايته، فاختار للحرب مكانا ضيقا جدا لا يسمح إلا لجماعة صغيرة جدا من جيشه في الاشتراك في القتال، فلما انتهت الموقعة وجد المقدونيون أنهم فقدوا ٤٥٠ من رجالهم، ووجد الفرس أنهم فقدوا ٤٥٠٠٠٠ رجل قتل أكثرهم ساعة التقهقر والانهزام، وتعقب الإسكندر الناجين من الفرس وعبر مجرى من الماء تكدست به أجساد قتلاهم، واستمر "دارا" في هربه، يهيم على وجهه، واضطر إلى أن يترك وراءه أمه العجوز وزوجته الجميلة وابنتين شابتين، ليس لهن من عتاد إلا عربته الملكية وسرادقه الفاخر الجميل، وتلقى الإسكندر هؤلاء النساء، وعاملهن معاملة فيها كثير من قواعد الفروسية والرجولة، مكتفيا بان يتزوج واحدة من الابنتين، وقد أدهش مسلكه هذا سائر المؤرخين اليونانيين، وروى لنا أحدهم

وهو "كوينتوس كورتيوس" أن والدة "دارا" قد أعجبت بمسلك الإسكندر أيما إعجاب، وأحبته حبا جما، بلغ من شدته أنه عندما بلغها موته كفت عن الطعام والغذاء حتى أدركها الموت والفناء...!

وحالو الشاب الفاتح في ذلك الوقت محاولة جريئة، شاء بها أن يستولى على جميع الأقطار الواقعة في غرب آسيا، ولكنه لم يشأ أن يتقدم إلى أبعد مما وصل إليه بعد ما فرغ من تنظيم فتوحاته وتأمين طرق مواصلاته، وخرج إليه سكان "بابل" وسكان "القدس" ورحبوا بلقائه، وقدموا إليه مدينتهما وما ادخروا فيهما من ذهب وفضة، فأحسن "الإسكندر" لقاءهم وجازاهم خير الجزاء، وأباح لهم بناء معابدهم التي أمر "اكزرسيس" بهدمها من قبل. وقد بادر "دارا" فأرسل إليه رسالة يعرض عليه فيها الصلح واستعداده لأن يدفع إليه مبلغا طائلا من المال[1] وان يزوجه ابنته، وأن يعترف له بالسيادة على جميع الأراضي الأسيوية الواقعة في غرب نهر الفرات، كل ذلك في مقابل أن يرد إليه الإسكندر أمه وزوجه وبناته، ويقبل المصالحة وإنهاء الحرب والقتال.

وقد ورد عن "بارمينو" – وهو القائد التالي للإسكندر على جيوش اليونان – انه قال للإسكندر: "لو كنت في مكانك لما

---

(١) قدروا هذا المبلغ بما يساوي ١٥٠٠٠٠٠٠٠ دولارا.

ترددت في قبول هذه العروض السخية، ولشعرت بالسعادة التامة في إنهاء الحرب على هذه الصورة المشرفة، دون أن اضطر إلى الزج بجيشي في هزيمة محتملة" ولكن الإسكندر أجاب على ذلك بقوله: "إني على استعداد لأن أفعل كل ذلك لو كنت بارمينو ولم أكن الإسكندر ..!!" وأرسل إلى "دارا" يخبره بأن شروط الصلح مرفوضة رفضا تاما وأنها لا تعود عليه بشيء من الفائدة، لنه يملك من الأراضي الأسيوية جميع النحاء التي عرضها عليه، ولأنه يستطيع أن يتزوج ابنته عندما يروق له ذلك، وقد أحس "دارا" باليأس من مجادلة هذا القائد المنطقي فانصرف مضطرا إلى جمع جيش آخر لمحاربته من جديد.

في هذا الوقت استطاع "الإسكندر" أن يستولى على مدينة "صور"، كما استطاع أن يضم "مصر" إلى حوزته، فلما تم له ذلك أخذ يخترق أراضي الإمبراطورية الفارسية العريضة قاصدا الاستيلاء على عواصمها البعيدة، وسارت جيوشه من مدينة بابل ووصلت بعد عشرين يوما إلى مدينة "السوس" واستولت عليها دون أن تصادف شيئا من المقاومة، ثم خرجت منها بسرعة إلى مدينة "برسيوليس"، وفاجأت حراسها وأخذتهم على غرة فلم يتمكنوا من نقل خزائنها بها، وهناك ارتكب "الإسكندر" عملا مشينا لطخ به

حياته الحافلة بجلائل الأعمال، فقد تمادى في غيه إرضاء ل"تاييس" وأعرض عن الاستماع إلى نصيحة قائده "بارمنيو" فأمر بإحراق القصور والغارة على المدينة ونهبها[1]، فلما فرغ من ذلك ونشط الجند، لما أصابهم من عطاء وما استولوا عليه من أسلاب، خرج الإسكندر على رأسهم صوب الشمال لينازل "دارا" في موقعة حاسمة أخيرة.

واستطاع "دارا" أن يجمع من ولاياته الشرقية جيشا جديدا بلغ عدده مليونا من الرجال، كان بينهم الفرس والبابليون والأشوريين والأرمن والبلخيون والصغد والهنود والساكا والكابادوسيون؛ وتحقق من أخطائه السابقة فلم يزودهم، كما كان يفعل من قبل بالقسي والسهام، بل زودهم في هذه المرة بالرماح والنصال والدروع والخيول والفيلة والعربات ذات المناجل الدائرة التي بنيت لتحصد العدو حصدا كما تفعل المناجل في حقول الحنطة أو الشعير .. وبدت آسيا بهذه الجموع الحاشدة، كأنها تريد أن تبذل هذا الجهد الأخير لكي تحافظ على كيانها في وجه أوروبا الناشئة الناهضة.

---

(١) يتفق المؤرخون "بلوطارخ" و"كوينتوس كوريتوس" و"بود وروس" على صحة هذه الرواية، وهي لا تؤذي سمعة الإسكندر في شيء، ولكننا مع ذلك نحس بشيء من الشك في صحة تفاصيلها.

واندفع الإسكندر بسبعة آلاف فارس وأربعين ألف راجل، وتلاقى مع هذا الجيش الفارسي المختلط في مكان اسمه "كوا كميلا[1]" فاستطاع بقيادته الحازمة وأسلحته الصارمة وشجاعته الدائمة أن يوقع بخصمه ويشتت عدوه في يوم واحد.

واضطر "دارا" مرة أخرى إلى الهرب والنجاة بنفسه، ولكن بعض قواده نقموا عليه جبنه وتتبعوه حتى قتلوه في خيمته، وقد أمر "الإسكندر" بقتل هؤلاء القواد الخائنين، ثم حمل جثة "دارا" في جنازة رسمية إلى مدينة "برسيوليس" ودفنها هنا لك بنفس المراسم التي كانت معروفة لدى ملوك "الاكمينيين" الأسبقين!

واجتمع الفرس بعد ذلك حول أعلام الغازي اليوناني، وراقتهم نضرة عودة وكثرة كرمه وجوده، فدانوا له بالطاعة بعد ذلك، وأصبحت فارس ولاية من ولايات الإمبراطورية المقدونية، لا تحتاج من الإسكندر إلا إلى حامية قوية يتركها فيها، ليخرج بعد ذلك غازي وفاتحا لبلاد الهند.

---

(١) مدينة تبعد عن "أربلا" بمسافة ستين ميلا، ومن هنا سميت المعركة أحيانا بموقعة "أربلا".

المكتبة الفارسية

مجموعة من الكتب يصدرها الدكتور إبراهيم أمين الشواربي ليعين القارئ على دراسة الفارسية وآدابها والاطلاع على ما بها من درر وروائع وفرائد زواهر.

صور منها حتى الآن الكتب والأبحاث العلمية الآتية:

١. (القواعد الأساسية لدراسة الفارسية)

وهو أول كتاب وضع بأسلوب علمي حديث لتعليم اللغة الفارسية لأبناء العربية، وهو مطبوع بلجنة التأليف والترجمة والنشر في سنة ١٩٤٦ م.

٢. (أغاني شيراز أو غزليات حافظ الشيرازي) في جزئيين كبيرين.

وهو عبارة عن أول ترجمة عربية لديوان حافظ الشيرازي تقع في جزئيين كبيرين، طبعا بلجنة التأليف والترجمة والنشر، الأول منهما في سنة ١٩٤٤ والثاني في سنة ١٩٤٥ م.

٣. (حافظ الشيرازي)

وهو عبارة عن دراسة واسعة مفصلة لأحوال هذا الشاعر

الإيراني الكبير، تضمنت وصفا مسهبا لموطنه وعصره وظروف حياته ومواضيع فلسفته ومحتويات ديوانه. وقد طبع هذا الكتاب بدار المعارف سنة ١٩٤٤ م.

٤. (حدائق السحر في دقائق الشعر)

أول كتاب في علوم البلاغة الفارسية، وضعه باللغة الفارسية أصلا "رشيد الدين مُحَمَّد العمري" الكاتب البلخي المعروف بال "وطواط" المتوفي سنة ٥٧٣ هـ وقد نقلناه إلى العربية لأول مرة في سنة ١٩٤٥ م وطبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٥. (قصة الحضارة الفارسية)

بحث طريف في أسلوب ممتع، نشره الأستاذ "ول دورانت" بالإنجليزية ضمن كتابه "قصة الحضارة" وقد نقلناه إلى العربية وطبعناه على حدة في مطبعة السعادة سنة ١٩٤٧ م.

٦. بحث (فيما نقله الجاحظ من أخبار الفرس)

منشور في مجلة كلية الآداب بالجزء الثاني من المجلد الرابع سنة ١٩٣٩ م.

٧. (مصادر فارسية في التاريخ الإسلامي)

بحث علمي مطول منشور في مجلة كلية الآداب بالمجلد السابع سنة ١٩٤٢ م.

٨. (نشأة الشعر الفارسي الإسلامي)

بحث علمي منشور في العدد الثامن من مجلة كلية الآداب بالمجلد الأول سنة ١٩٤٦ م.

٩. (رحلة في إيران)

مقالات منشورة بمجلة الراوي الجديد بالسنة الثامنة سنة ١٩٤٣م.

الفهرس